السمات التقليدية للشخصية المصرية وما اعتراها من تغيرات

تميزت الشخصية المصرية على مر عصور طويلة بسمات كانت أقرب إلى الثبات ولذلك يعتبرها العلماء سمات أصيلة وذلك لتمييزها عن سمات فرعية أو ثانوية قابلة للتحريك مع الظروف الطارئة. فالمصرى تميز بكونه: ذكيا، متدينا، طيبا، فنانا، ساخرا، عاشقا للإستقرار (عزه عزت، ٢٠٠٠، التحولات فى الشخصية المصرية، كتاب الهلال).

وكان هذا يشكل الخريطة الأساسية للشخصية المصرية فى وعى المصريين ووعى غيرهم، وقد أدى إلى الثبات النسبى لهذه السمات ارتباطها بعوامل جغرافية ومناخية مستقرة نسبيا.

وقد حدثت تحولات نوعية فى بعض السمات وتحولات نسبية فى سمات أخرى، فمثلا استخدم البعض ذكاءه فى الفهلوة، وتعددت صور التدين بعضها أصيل وبعضها غير ذلك، وقلت درجة الطيبة وحل محلها بعض الميول العنيفة أو العدوانية الظاهرة أوالخفية ، وتأثر الجانب الفنى فى الشخصية تحت ضغط التلوث والعشوائيات، وزادت حدة السخرية وأصبحت لاذعة قاسية أكثر من ذى قبل وأحيانا متحدية فجة جارحة، أما عشق المصرى للإستقرار فقد اهتز كثيرا بعدما أصبحت البيئة المصرية طاردة نحو الخارج بحيث أصبح حلم كثير من الشباب السفر إلى أى مكان لتحقيق أهدافه بعد أن أصبح متعذرا تحقيق الآمال والأحلام على أرض الوطن.

ونستطيع أن نرصد عددا من العوامل الرئيسة التى أدت إلى تلك التغيرات فى السمات الأصلية للشخصية المصرية ومنها:

١ – ثورة يوليو وما صاحبها من تغييرات جذرية (بعضها ايجابى وهو ما يتصل بالتحرر الوطنى وطرد المستعمر، وأكثرها سلبى وهو ما يتصل بالحكم الإستبدادى البوليسى) أدت إلى تغيرات فى البناء السياسى والإجتماعى والإقتصادى، وهزت البنية

القيمية حيث أشاعت قيما استبدادية قهرية، وأرست قواعد الإعتمادية على النظام، والسلبية، والفهلوة، وادعاءات البطولة الزائفة، والسير وراء الزعيم بأعين مغمضة وأصوات هاتفة وقلوب مليئة بالحماس الجارف بلا دليل. باختصار أحدثت الثورة ورجالها تناقضات هائلة فى البنية النفسية للشخصية المصرية تحتاج لبحث منفصل لبيان مداها.

٢- نكسة يونيو ١٩٦٧، وقد كانت قمة التعبير عن خداع الذات والتسليم لزعامات كاريزمية بعيدة عن التخطيط السليم والموضوعية. حدث بعدها صدمة وتغيرات جذرية أخرى فى الشخصية المصرية حيث راحت تبحث عن هوية دينية بعد فشل الهوية القومية الإشتراكية التى نادى بها زعماء الثورة ومنظروها، ومن هنا بدأت التيارات الدينية المعتدلة والمتطرفة فى مصر وامتدت إلى العالم العربى والإسلامى تحت وطأة المواجهة البوليسية القاسية لتلك التيارات.

٣- معاهدة السلام مع إسرائيل وما تبعها من تغيرات سريعة ومفاجئة لكثير من المفاهيم حول إسرائيل كعدو أساسى والإرتماء بعد ذلك فى الحضن الأمريكى وماتبعه من تغيرات ثقافية واجتماعية بناءا على التفاعل مع ثقافات غريبة تستقبلها الشخصية المصرية بمشاعر متناقضة وبشكل أسرع من طريقتها وطبيعتها فى استيعاب وهضم وتمصير الثقافات الأخرى.

٤- الإنفتاح الإقتصادى المنفلت، وما تبعه من تنامى القيم الإستهلاكية، والرغبة فى الثراء السريع دون جهد حقيقى، وشيوع قيم الخفة والفهلوة وانتهاز الفرص.

٥- السفر إلى بلاد الخليج وغيرها من الدول العربية، وما تبع ذلك من تغير الأنماط الإستهلاكية والثقافية والدينية تبعا للنموذج الخليجى، مما أدى إلى تعتعة استقرار النماذج القائمة والمستقرة منذ قرون لصالح النموذج السلفى من ناحية أو النموذج المستغرب من ناحية أخرى.

٦- العولمة وما أدت إليه من فتح السماوات للقنوات الفضائية والإنترنت، وفتح

الأسواق لكل ماهو جديد، وفتح شهية المتلقى للمزيد من الجديد والغريب والمثير.

٨ قانون الطوارئ الذى امتد العمل به لمدة ٢٥ سنة (وما زال حتى كتابة هذه السطور عام ٢٠٠٥ م، ١٤٢٥ هـ – ولا يدرى أحد متى يتوقف العمل به)، بحيث أدى إلى شيوع حالة من القهر والخوف، وانعدام الثقة بين السلطة والشعب، وأطلق يد السلطة الأمنية فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس (تعيينات الوظائف على كل المستويات، والترقيات، واختيار الوظائف القيادية، والإنتخابات، والبعثات، وكل شئ)، وأطفأ النبض الحقيقى على المستويات السياسية والفكرية والدينية والإجتماعية، وأتاح الفرصة لتغلغل الفساد المحتمى بالسلطة ووصول عناصر تفتقر إلى الكفاءة والضمير إلى مراكز عليا تحت سقف الطاعة والولاء، فى نفس الوقت الذى ابتعدت فيه (أو استبعدت) العناصر الموهوبة والمتميزة عن مراكز التأثير والتوجيه، أما بقية الناس فقد تحولوا إلى أغلبية صامتة تسعى إلى أن تحصل على لقمة عيشها وعيش أبنائها، ولكى تتقى سطوة السلطة المطلقة تحت مظلة قانون الطوارئ لجأت إلى تعلم مهارات الفهلوة والتحايل والكذب والإلتواء والتخفى والتنازل عن أشياء كان يعتز بها المصريون مثل الكرامة والضمير والصدق والشهامة، واستبدل كل هذا بحالة من الخنوع والخداع والنفاق والتحايل ومد اليد تسولا أو رشوة أو سرقة.

ورغم التحولات الحادثة فى السمات الست للشخصية المصرية إلا أن الشخصية المصرية تعتبر نسبيا أكثر ثباتا خاصة فى مواجهة تغيرات العولمة، حيث نجد أن مجتمعات عربية أخرى قد ذابت تماما أو تكاد فى النظام العالمى الجديد بكل سلبياته وإيجابياته، وربما يعود ذلك الثبات النسبى للشخصية المصرية إلى تراكم سماتها فى طبقات حضارية عبر عصور طويلة وتأكد هذه السمات مع الزمن رغم التغيرات الطارئة، كما أن المصرى لديه ميل قوى للإبقاء على الأوضاع القائمة يعود لتأثره بالطبيعة الجغرافية والمناخية التى يعيشها كما سنذكر ذلك لاحقا.

الطبيعة والشخصية المصرية

للطبيعة أثر كبير على الشخصية لدرجة أن علماء النفس والإجتماع استطاعوا أن يضعوا صفات مميزة لسكان المناطق الريفية تميزهم عن سكان سواحل البحار، وتميز هؤلاء وهؤلاء عن سكان الجبال والصحارى.

يقول جوستاف لوبون فى كتابه «الحضارة المصرية القديمة»: «إذا كان المصرى قد شعر بالسأم من سهوله الوضاءة المشرقة، فإنه قد جهل الآلام المفزعة والتى تنشأ على شواطئ البحار الموحشة، وفى خلال الشفق الأحمر تحت السماء المتقلبة الغادرة».

فإذا نظرنا إلى الطبيعة المصرية وجدنا النيل يتمايل فى هدوء بين جنبات الوادى السهل المنبسط، ووجدنا سجادة من الخضرة الجميلة والمريحة منبسطة على ضفتيه تدعو للراحة والإسترخاء، وخرير المياه فى القنوات والترع، وأنين السواقى وهى تروى عطش الأرض، ووفرة الغذاء الناتج عن الأرض الخصبة المعطاءة، والسماء الصافية معظم فصول السنة، والشمس المشرقة على مدار العام، والمناخ المعتدل صيفا وشتاءا والذى يخلو من التقلبات الحادة والعنيفة والمهددة. هذه هى الطبيعة التقليدية التى عاش فيها المصرى على ضفتى النيل وتركت بصماتها على شخصيته فى صورة ميل إلى الوداعة والطمأنينة والهدوء وطول البال والدعابة والمرح والتفاؤل والوسطية وحب الحياة. هذه السمات لاندركها بوضوح إلا إذا قارناها بسمات من يعيشون فى بيئات مهددة مليئة بالعواصف والنوّات على سواحل البحار والمحيطات الهائجة، أو من يعيشون فى بيئة صحراوية أو جبلية شديدة القسوة والفقر والجفاف، أو من يعيشون فى غابات مليئة بالحيوانات المفترسة يتوقعون الخطر فى كل لحظة، أو من يعيشون فى القطبين تحت العواصف الثلجية ويلبسون ثيابا ثقيلة تحد من حركتهم وتلقائيتهم وتخنقهم تحت ثقلها.

وإذا كانت الطبيعة السمحة البسيطة المعطاءة قد أعطت صفاتا إيجابية فإن لها أيضا جانبا سلبيا، حيث منحت المصرى شعورا زائدا بالطمأنينة والسكينة وصل به فى بعض

الأحيان إلى حالة من الكسل والتواكل والسلبية والتسليم للأمر الواقع والميل إلى الإستقرار الذى يصل أحيانا إلى حالة من الجمود. فالشخصية المصرية مثل الطبيعة المصرية لاتتغير بسهولة ولا تتغير بسرعة، بل تميل إلى الإستقرار والوداعة والمهادنة وتثبيت الوضع القائم كلما أمكن والتصادق معه وقبوله. وهذه الصفات قد خدمت إلى حد كبير كل من حكموا مصر على مدار التاريخ حيث كان ميل المصرى للوداعة والطمأنينة والإستقرار يفوق ميله للثورة والتغيير، وربما يكمن هذا العامل وراء الحالة المزمنة من الحكم الإستبدادى على مدار التاريخ المصرى، فقد كان الحاكم يبدأ بسيطا متواضعا ثم بطول المدة واستقرار الأوضاع تتمدد ذاته على أرض الوادى الخصيب وسط أناس طيبين مسالمين وادعين، وشيئا فشيئا تتوحش هذه الذات الحاكمة وتحكم قبضتها على رقاب الشعب، والحاكم يعرف دائما أن الشعب المصرى لا يميل إلى الثورة خاصة فى أشكالها العنيفة. فخلو الطبيعة المصرية – نسبيا – من الزلازل والبراكين والنوّات والأعاصير الجارفة يقابله ميل شعبى لاستمرار الإستقرار واستقرار الإستمرار، وهذا شعار يرفعه كل حاكم استبد بحكم مصر واستغل هذه الرغبة الدفينة لدى المصريين فى الإستقرار والوداعة وراحة البال. وذكر ابن خلدون فى مقدمته: «أن أهل مصر يميلون إلى الفرح والمرح، والخفة، والغفلة عن العواقب». وربما يفسر هذا كون المصريين كانوا يحكمون بواسطة حكام أجانب معظم مراحل تاريخهم، وكانوا يقبلون ذلك سماحة أو طيبة أو غفلة أو تهاونا أو رغبة فى الراحة والإستقرار. وحين كانت تشتد بهم الخطوب نتيجة عسف الحاكم الأجنبى المستبد والمستغل كانوا يستعينون بالنكات اللاذعة والسخرية لتخفيف إحساسهم بالمرارة مما يعانون، وكان سلاح السخرية يؤجل الثورة وربما يجهضها لأنه يعمل على تنفيث الغضب الكامن والمصرى يتحرك ويثور فى حالات قليلة ومحددة وهى:

١ – حين تنتهك قدسية عقيدته الدينية المتراكمة عبر عصور طويلة.

٢ – حين تجرح كرامته الوطنية بشكل مهين.

٣ – حين تهدد لقمة عيشه بشكل خطر.

والطغاة والمستبدون كانوا يعرفون حدود هذه الأشياء فيحفظون له الحد الأدنى منها حتى يضمنوا استمرار ولائه، أو يحاولون خداعه حتى لا يصل إلى حالة الشعور بالمهانة أو العوز المحرض على الثورة.

ولا شك أنه قد حدثت تغيرات شملت الطبيعة المصرية وامتد تأثيرها إلى الشخصية المصرية، فقد أدى الزحام الشديد فى المدن والقرى إلى الإحساس بالضيق والإختناق والحرارة الزائدة خاصة فى الصيف، إضافة إلى ارتفاع معدلات التلوث السمعى والبصرى، كل ذلك أدى إلى تنامى حالة من العصبية وسرعة الإستثارة والعدوان لدى المصريين بشكل لم يكن معهودا من قبل. وعرف المصريون الزلازل فى السنوات الأخيرة فاهتز الإحساس بالإستقرار بعض الشئ. ولم تعد خيرات الأرض تكفى المصرى أو تطمئنه لذلك لم يعد مطمئنا كما كان واضطر للسفر إلى شرق الأرض وغربها باحثا عن لقمة العيش له ولأسرته، ثم عاد بعد سنوات وهو يحمل أفكارا وتوجهات تنتمى إلى بيئات وثقافات أخرى، وضعف لديه الإنتماء بدرجات متفاوتة عن ذى قبل لأن البيئة المصرية لم تعد معطاءة كما كانت ولم تعد مستقرة كعهده بها ولم تعد وديعة مطمئنة كما عرفها. وقد أدى هذا إلى بعض التغيرات نذكر منها:

١- توجهات دينية استقطابية لا تعترف بالآخر المختلف وتميل إلى تكفيره أو استبعاده.

٢ – جماعات تميل إلى التعامل بعنف مع السلطة والمجتمع، ولكن هذه الجماعات لا تشكل حتى الآن تيارا عاما، حيث بقى عموم الناس متأثرين بالطبيعة القديمة للشخصية المصرية نوعا ما، وإن كان هذا قابل للتغير فى السنوات القليلة القادمة فى حالة استمرار الضغوط السياسية والإجتماعية والإقتصادية القائمة.

٣- رغبة فى الهجرة إلى أى مكان فى الأرض بعيدا عن الأحوال المعيشية الصعبة التى تخلو من الأمل والحلم خاصة للشباب.

٤ – حالة عامة من الإحباط والقلق والضيق، ولكنها لا تتشكل – حتى الآن – فى

صورة فعل يهدف إلى التغيير.

٥- شراهة استهلاكية لدى الجميع – رغم الفقر – وخاصة الفئات التى أثرت ثراءا طفيليا سريعا.

إذن فقد تغيرت الطبيعة فى بعض جوانبها وتغيرت تبعا لذلك الشخصية المصرية فى بعض سماتها.

***

تعددية أم تناقض

حين شرعت فى الكتابة عن الشخصية المصرية شعرت بحيرة شديدة حيث وجدتنى أمام كم هائل من الصفات والجوانب المتعددة والمتناقضة فى نفس الوقت بحيث تجعل الصورة أشبه بمناطقنا العشوائية المنتشرة فى طول البلاد وعرضها ففيها الفقر المدقع والغنى الفاحش، وفيها الظلم وفيها العدل، وفيها القسوة فى أشد صورها(تعذيب حتى الموت) وفيها الرحمة فى أجمل صورها (جمعيات خيرية وتكافل اجتماعى) وفيها العلم والعلماء (أربعة جوائز نوبل فى بلد صغير نسبيا وفى فترة زمنية قصيرة) وفيها الجهل المطبق على غالبية سكانها، وفيها الإستبداد السياسى وفيها فى ذات الوقت صحفا مستقلة وحزبية تتحدث بكامل الحرية وأحيانا تتجاوز كل الخطوط الحمراء، وفيها الأزهر والحسين والسيدة نفيسة والكاتدرائية المرقسية والجماعات الإسلامية والمسيحية، وفيها شارع الهرم واستديوهات إنتاج الفيديوكليب، فيها الطيبة والقسوة، فيها الشهامة والنذالة، فيها السماحة والتعصب، فيها الفن الجميل والقبح الفاحش، فيها..... وفيها، وفيها.....

وربما يقول قائل: وما الغرابة فى ذلك أليست مصر مثل كل المجتمعات البشرية، والبشر فيهم كل هذا؟..... وهذا تساؤل مشروع ومنطقى ولكن فى الشخصية المصرية وفى الحياة المصرية عموما تجد هذه التعددية وهذه المتناقضات صارخة إلى الدرجة التى جعلت عالما مثل موريس هيندوس (Maurice Hindus 1949) يردد أن مصر أرض المتناقضات (Land of paradox) ربما – كما يقول جمال حمدان – تحت تأثير التباين الشديد بين الفروق الإجتماعية الصارخة من ناحية، أو من ناحية أخرى بين خلود الآثار القديمة وتفاهة المسكن القروى، أو بين الوادى والصحراء حيث يتجاوران جنبا إلى جنب، ولكن كما تتجاور الحياة والموت.

ولذلك سوف نجد أنفسنا أمام سمات قد تبدو متباعدة أحيانا ومتناقضة أحيانا

أخرى، وهذا يستدعى منا الكثير من الصبر وسعة الصدر والإحتمال لما سنعرضه عن هذه الشخصية المثيرة للإعجاب فى لقطات والمثيرة للغضب والإستهجان فى لقطات أخرى.

وقد وضع الدكتور ميلاد حنا كتابه «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» ليوضح فيه روافد تعددية وثراء وأحيانا تناقض سمات هذه الشخصية.

ووضع أيضا جمال حمدان فصلا فى كتابه شخصية مصر تحدث فيه عن تعدد الأبعاد والجوانب[1]. وخلص إلى أن الأمة المصرية أمة متعددة الجوانب، متعددة الأبعاد والآفاق، مما يثرى الشخصية الإقليمية والتاريخية... فلها بعد آسيوى وبعد إفريقى وبعد نيلى وبعد متوسطى، وكل بعد من هذه الأبعاد يترك بصمته على الشخصية المصرية بشكل أو بآخر.

***

(١) • شخصية مصر ، كتاب الهلال ، عدد ٥٠٩ ، ١٩٩٣.

الشخصية المصرية بين التكيف والتشوه

سألنى يوما أحد أصدقائى الأجانب: كيف يعيش المصريون بمرتباتهم الهزيلة وكيف يدبرون حياتهم ونصفهم تحت خط الفقر دون أن يثوروا أو تنتشر بينهم الجريمة؟!!!.....

وكان ردى وقتها أن المصريين لديهم قدرة هائلة على التكيف مع الظروف، ويبدو أن هذه القدرة اكتسبوها من تاريخهم الطويل فى التعامل مع أنماط متعددة من الحكام والحكومات، وتغير الظروف والأحوال التى يعيشون تحت وطأتها، فلديهم مرونة كبيرة فى التعامل، ولديهم قدرة على قبول الأمر الواقع والتكيف معه أيا كان هذا الأمر، ولديهم صبر طويل على الظروف الضاغطة والقاصمة، ولديهم أمل فى رحيل من يظلمهم بشكل قدرى لا دخل لهم فيه (اصبر على جارك السو، يا يرحل يا تجيله داهية تاخده)، فهم يراهنون دائما على الزمن يحل لهم المشكلات، أو تتحلل معه (المشكلات وعزائمهم).

وعلى الرغم من بريق هذه القدرة العالية على التكيف فى الظاهر إلا أن عين الباحث الموضوعى يرى أنها ربما تكون عيبا كبيرا فى كثير من الأحوال، فالمصرى كثيرا ما يقبل الأمر الواقع ويغير فى نفسه وفى شخصيته وفى ظروف معيشته لكى يلائم هذا الواقع، وبالتالى لا يفكر كثيرا أو جديا فى تغيير الواقع بل يميل غالبا للإستسلام له والتسليم به إلى درجة الخضوع المذل، ولهذا عرف عن المصريين ميلهم للإستقرار وعدم التغيير، وخوفهم من الجديد، وابتعادهم عن المغامرة أو المخاطرة، ورضاهم بما هو كائن، وصبرهم السلبى على ظروف تستحق المواجهة أو التغيير أو الثورة. ويبدو أن هذه السمات مرتبطة بالطبيعة الزراعية التى ترى أن دورها فى الإنتاج الزراعى محدود ببذر البذرة وانتظار نموها دون تدخلات جذرية فى هذا النمو سوى الرعاية والإنتظار، وهذا يختلف عن المجتمع الصناعى الذى يشعر فيه الفرد (والمجتمع) بقدرته الكبيرة على التغيير والتوجيه والنمو.

وقد أدت محاولات التكيف المتكررة أو المستمرة مع ظروف ضاغطة وسيئة فى فترات

متعاقبة إلى حدوث تشوهات فى سمات الشخصية لم ينج منها إلا قليل من الناس كانوا على وعى بهذا الأمر، أو قرروا الإمتناع عن التكيف المشوه مع ظروف مشوهة. وهذه القلة من الناس تعانى ظروفا صعبة حين تتعامل مع مجتمع وافق غالبيته على قبول الأمر الواقع – دون محاولة صادقة أو جادة لتغييره – وهذا الأمر يضع تلك الأقلية فى حالة غربة واغتراب وصعوبات حياتية كثيرة. وإذا أخذنا مثلا لذلك موضوع الرشوة، فقد انتشرت بشكل وبائى فى المجتمع المصرى حتى أصبحت من القواعد الأساسية للتعامل مع موظفى الحكومة، ويقابلها البقشيش أو الإكرامية أو الدخان فى القطاع الخاص، فإذا وجدنا شخصا شريفا يرفض هذا الأمر من منطلق أخلاقى، فإننا يمكن أن نتوقع كم الصعوبات التى سيواجهها فى حياته اليومية مع أناس تعودوا لدرجة الإدمان على الرشوة بكافة صورها. وقس على هذا الأمر كثير من الأمور. ومع هذا فقد بقى فى المصريين نماذج مشرفة فى كل مجال وفى كل مكان يقاومون هذا الإنحراف العام ويعطون الأمل بإمكانية تصحيحه يوما ما فى ظروف تصل فيه هذه النماذج إلى مراكز التأثير (كيف؟..... لا ندرى؟..... حيث الرموز والقوى الداعمة والراعية للفساد أو الساكتة عنه والمتساهلة فيه مازالت متشبسة بمواقعها).

والشعب المصرى ليس شعبا ثوريا، لذلك تمر سنوات طويلة على أى ظروف غير مواتية يعيشها، وغالبا يتحرك بعوامل خارجية نحو التغيير تضغط عليه فلا يجد مناصا من الحركة، أما لو ترك لذاته فهو يميل إلى استقرار الأوضاع إلى درجة الجمود أحيانا طمعا فى الأمن وبقاء لقمة العيش حتى ولو كان أمنا ذليلا أو لقمة مرة.

ولكى يتمكن المصرى من مواصلة التكيف وتحمل ثقل الأمر الواقع (الذى لا يسعى جديا لتغييره) فإنه يستخدم النكتة والقفشة والسخرية سلاحا يواجه به من فرض عليه هذه الظروف، وهذه الوسائل تقوم بتفريغ طاقة الغضب، إن كان ثمة غضب، وتؤدى بالتالى إلى استقرار الأمور، أو بالأحرى إلى بقاء الوضع على ماهو عليه، رغم قسوته وضغطه وتشوهه. ولهذا نجد الحكام، أو على الأقل بعضهم، لا يضيقون بما يصدره الشعب من نكات سياسية تمسهم، لأنهم يعرفون أن فى ذلك تفريغ لطاقة الغضب الشعبى، وتأجيل لأى محاولة للتغيير.

الفهلوة المصرية

منذ سنوات عديدة وبالتحديد فى عام ١٩٨٣ كنت أؤدى امتحان الجزء الأول من الماجستير فى الطب النفسى وتعرضت فى كلامى لتصنيف للشعوب المختلفة يعطى كل شعب سماتا مشتركة وأحيانا نمطا شخصيا عاما، ولكننى وجدت الممتحن (وهوأستاذ مصرى كبير و شهير فى الطب النفسى) تظهر عليه علامات القلق والرفض ، وحذرنى وقتها من الوقوع فى خطأ التعميم على الشعوب حيث أن كل فرد فى أى مجتمع له سماته الخاصة ونمط شخصيته، وأن هناك تفاوتات هائلة داخل كل مجتمع فيما يخص السمات والأنماط الشخصية، ولقد احترمت رؤيته واستجبت لتحذيره لعدة سنوات، ولكن مع التعامل مع مجتمعات متعددة وجنسيات مختلفة بشكل أكثر عمقا عاودنى هذا الخاطر مرة أخرى واكتشفت أن هناك الكثيرون يتفقون على أن للشعوب أنماطا وسمات مشتركة تميزها بشكل عام على الرغم من الإختلافات الفردية الكثيرة لأفرادها، وأن عوامل الجغرافية والتاريخ والسياسة والإقتصاد والدين، كل ذلك يشكل الشخصية العامة لمجتمع بعينه، وقد كتب عالمنا العظيم جمال حمدان عن «شخصية مصر» وكأن مصر نفسها (وليس فقط المصريين) كيان معنوى له سمات مميزة تفرقها عن أقطار أخرى لابد وأن لها هى الأخرى سماتها المختلفة.

وإذا كان هناك من علماء الإجتماع من ينكر وجود نمط سائد للشخصية فى مجتمع ما أو فى عصر ما إلا أن عالما مثل الدكتور حامد عمار قدم دراسة مستفيضة رجع فيها إلى العصور القديمة والمجتمعات البدائية وما كتب عنها من دراسات تؤيد أن كل مجتمع يسود فيه نمط معين للشخصية يغلب على أفراده ويظهر على السطح ويحظى بالفرض والأسبقية، وقد ضرب أمثلة لذلك من المجتمعات القديمة والحديثة نكتفى منها بذكر نماذج لمجتمعات حديثة لعلها تكون أقرب للر ؤية من غيرها، فإذا أخذنا المجتمع الإنجليزى وجدنا أن المثل الأعلى للشخصية الإنجليزيةهو نمط «الجنتلمان»، ومن أهم سمات هذا النمط: ضبط النفس وعدم المبالغة أو الإسراف فى التعبير، والتحفظ الشديد فى

السلوك أو إظهار المشاعر، والتمسك بالشكليات، والميل إلى التلميح أكثر من التصريح، والحرص على أن تكون هناك مسافة بين الفرد والآخرين، والإحتفاظ بخط الرجعة فى كل علاقة أو صداقة، والتوفيق بين الآراء، والحرص على إظهار الإستعداد للخسارة والتنازل فى الوقت الذى يكون قد حسب حساباته جيدا وتأكد أنه الرابح، ويحرص ال «جنتلمان» أيضا على مراعاة القانون والتقاليد الإجتماعية. أما النمط الأمريكى فهو – على العكس – يمجد الرجل العادى، ويرى أن المساواة تسبق الحرية، وهو متفائل دائما ويرى أن الغد سيكون أفضل من اليوم، ولديه نزعة إلى الظهور، والنفوذ، والقوة، والعنف، والسيطرة، ويسعى دائما إلى النجاح، ويقبل التحدى والمنافسة والصراع، ويعتمد على جهده الفردى ليشق طريقه. والشخصية الأمريكية – كما هو معروف – لا تميل إلى التعمق فى التفكير والتحليل، وتفضل الطابع العملى، والسلوك والسعى إلى كل ما يحقق منفعة، وهذا هو جوهر الفلسفة «البراجماتية» التى تمثل جوهر الشخصية الأمريكية[1].

إذن نستطيع القول – بدرجة معقولة من الصحة – أن مفتاح الشخصية الإنجليزية هو ال «جنتلمان» فى حين أن مفتاح الشخصية الأمريكية هو «البراجماتى»، وهذه المفاتيح هى بمثابة الشفرة التى من خلالها نستطيع قراءة الكثير من أفكار وسلوكيات كل شخصية، وهى أيضا فلسفة حياة تكونت عبر ظروف جغرافية وتاريخية عميقة، فالشخصية الإنجليزية – على سبيل المثال – قد تأثرت بأخلاق طبقة الفرسان والنبلاء فى العصور الوسطى وتاثرت بطريقة حكم الملكة إليزابيث الأولى التى كانت تنتهج طريقة فى الحكم لاتتسامح فيها مع أى خطأ وتعلى من قيمة أخلاق طبقة النبلاء، وتأثرت أيضا بعصور الإستعمار وما يلزمها من حرص وحذر وتحفظ ودقة فى التعامل مع الآخر، أما الشخصية الأمريكية فقد تشكلت من مجموعة من المغامرين والمهاجرين وأحيانا المنبوذين من مجتمعاتهم التقليدية، وهؤلاء جميعا يجمعهم حلم التفوق والثروة والنجاح والنفوذ والسيطرة، وهم فى سبيل ذلك مستعدون للتضحية بأى قيمة، خاصة أن القيم فى نظرهم تنتمى إلى أخلاقيات المجتمعات التقليدية التى هجروها أو نبذتهم هى، وكأن بينهم وبين

(١) عن كتاب المصريون فى المرآة ، رجب البنا ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠.

القيم التقليدية عداء خفى، وبهذا تصبح المنفعة عندهم هى الدين الأساسى وهى القيمة العليا التى تتشكل حولها كل تفصيلات السلوك وكل سمات الشخصية، ويشجعهم على ذلك ما حققته هذه الفلسفة البراجماتية من تفوق تكنولوجى ومن ثروة طائلة ومن نفوذ عالمى بصرف النظر (نظرهم هم) عن أى اعتبارات دينية أو أخلاقية أو قانونية.

إذن فمن المشروع أن نحاول اكتشاف مفتاح (أومفاتيح) للشخصية المصرية يسهل علينا قراءتها وفهمها والتنبؤ بردود أفعالها، وطريقة التعامل معها وأخيرا – وهو الأهم – إصلاحها إن كان ثمة ضرورة ونية لذلك.

ومسألة مفتاح الشخصية قد استخدمها العقاد بنجاح فى عبقرياته لكى يوضح بها محور الشخصية الأساسى الذى تدور حوله،أو تنبثق منه بقية عناصر الشخصية وتوجهاتها.

وقد رأى المستشرق الفرنسى «جاك باركن» أن الفهلوة هى السلوك المميز للشخصية المصرية، وهو يرى «أن هذا السلوك مكن مصر من ألا تضيع أبدا لكنه جعلها تخسر كثيرا» (حماده حسين، روزاليوسف ٣٠/ ٣/ ٢٠٠١ -٣٧٩٨). ويصدق دكتور حامد عمار عميد التربويين المصريين على مقولة المستشرق الفرنسى محاولا قطع شوط طويل فى المسافة الشائكة بين كون الفهلوة سلوكا أنقذ مصر على طول تاريخها من الضياع، والخسارة التى ما زالت مصر تتكبدها بسبب الفهلوة، ووصل دكتور عمار فى رحلته إلى عمق رأى فيه أن الفهلوة قد توحشت وأصيبت بالسعار.

يقول دكتور عمار: «عصور طويلة مرت لكل عصر منها سماته المميزة، وخصائصه الفريدة وألوانه الخاصة فى تلوين ملامح الفهلوة دون المساس بالأصل... والحقيقة أنه لم يكن هناك متسع من الوقت والجهد لأن يتغير الأساس... إذا كانت الفهلوة الوسيلة المثالية لبناء جسد يتجاوز به المصرى المسافة الفاصلة بين قدرته اللامتناهية على الطاعة والقبول بأقل القليل.. وبين إحساسه بالبرودة والغربة تجاه السلطة فهو مثلا يخاف منها ويطيعها.. رهبته منها تمحو قدرته على الفعل والمشاركة.. يخادعها.. يتنكر لها.. ينتقدها سواء فى نكتة أو «قعدة فرفشة»، وغالبا ما يصل نقده إلى حد السخرية اللاذعة والتجريح.

وطبقا لذلك فقد كونت خفة الظل والحداقة والشطارة والقدرة على المراوغة كوكتيل سعادة أعطى المصرى القدرة الفائقة على طى سنوات طويلة سكنها السواد والحزن.. ربما يكون هذا هو الجانب المشرق للفهلوة الذى قصده المستشرق الفرنسى».

أما الخسائر كما يقول حامد عمار فتبدو فى أن المصرى البسيط لم يشارك فى بناء بلده المشاركة الحقيقية وإنما ترك المهمة لفئة واحدة اختارت نوع الحضارة والعمران وبلورة القيم والأعراف، وهذا لا شك خلق نوعا من الإذعان والإستسلام مخلوطا بالمخادعة والتملق المبالغ فيه، إضافة لشئ أخطر هو أن نهمه الشديد للكلام قد فجّر طاقات لسانه «عمّال على بطّال» بينما أصيبت رغبته فى الفعل وبذل الجهد والعرق بالشلل شبه التام». «تنزل من بيتك فى الصباح فتسمع هذا الشخص ويبدو من صوته وعباراته أنه يبيع الهواء فى زجاجة.. ولديه قدرات خاصة تمكنه من لف الفيل فى منديل.. وسحق عظام من يقف فى وجهه.. بينما هو لا يعرف ماذا يبيع.. أو من أين سيأتى بالفيل إذا كان فى جيبه منديل.. ويخاف من العتمة.. تقول فى نفسك أنه فهلوى.. وهذا حقيقى لأنه يعتمد على إحداث أكبر قدر من الضجيج والتشويش وجذب الإنتباه بتضخيم الذات لتفادى مواجهة الواقع بمشاكله المعقدة وخيوطه المتشابكة التى يتطلب حل عقدها الإجتهاد والجهد والفعل».

وشخصية الفهلوى تراها وأنت تركن سيارتك بجانب أى رصيف أو تخرج بها فتفاجأ بأن الأرض انشقت وخرج منها شخص يقف وراءك أو أمامك ليقول لك «تعالى.. تعالى» ويتصرف وكأنه ينظم حركة دخولك أو خروجك، وفى الحقيقة هو يعوق حركة السيارة بوقوفه المستفز أمامها أو خلفها. وترى الفهلوى يقابلك فى الشارع أو فى أى مصلحة حكومية فيبادرك بالسلام (وكأنك تعرفه من زمن) ويقول لك بشكل سمج وثقيل «كل سنه وانت طيب يابيه»، أو يقول لك وأنت عائد من المطار «حمدالله على السلامه يابيه»، ومن كثرة ما ترددت هذه الكلمات فى مثل هذه الظروف وبهذه الكيفية من هؤلاء الأشخاص أصبحت ذات مدلول سلبى يجعلك تكره سماعها.

والفهلوى المصرى تراه عند شبابيك تجديد رخص السيارات فى إدارات المرور يعرض خدماته عليك، وكثيرا ما يفرض نفسه عليك بتقديم مشورة لم تطلبها، والتلويح

لـك بقدرتـه عـلى إنهـاء الأوراق بسـهولة وسرعـة، وحمايتـك مـن كـل أنـواع الـروتين والبيروقراطية، وترى أخاه الفهلوى الآخر يعمـل ساعيا أو عامـل بوفيـه فى أى مصـلحة حكوميـة يقابلـك فى مـدخل المصـلحة ويـرى الحيرة والإرتبـاك عـلى وجهـك فيصـطادك ويعرض عليـك تخليص أو تسـهيل المهمـة. والنظـام البيروقراطى، والتعقيـدات المكتبيـة وشـيوع الرشـوة والوسـاطة، كـل ذلـك أدى إلى تنـامى دور الفهلـوى حتـى أصـبح مـن مكونات المنظومة الإجتماعية المصرية المعاصرة.

ولا تتوقف الفهلوة عند هذه المستويات الدنيا بل تتسـلل إلى المراكـز الوظيفيـة العليـا حين يتلاعب رؤساء مجالس إدارات الشركات بالأرقام ويحولون خسـائرهم إلى مكاسـب ويوهمون الآخرين وربما أنفسهم بتحقيق إنجازات عظيمة، ويتصـورون أن للكـلام تـأثير يساوى الفعل فيضعون هذا محل ذاك، وحـين تتكشـف الأمـور ويحـدث الإنهيـار يلجـأون للتبرير والتهرب من المسئولية والبحث عن كبش فداء من صغار الموظفين.

والفهلوى تراه فى مسئول كبير فى وزارة الصحة يؤكـد أننـا فى مصر قضـينا تمامـا عـلى شلل الأطفال ولم تسجل فى مصر حالة واحـدة منـذ عـدة سـنوات، ثـم تكتشـف أن هنـاك عدد ليس بالقليل من الحالات مسـجلة بالإسـم والعنـوان لـدى المنظمات العالميـة المهتمـة بالصحة والطفولة.

والفهلوة تراها فى طبل وزمر حول قدرة مصر على تنظيم أكبر مونديال للكرة العالمية وأن مصر فيها قوة جذب لا تقاوم للسائح الأجنبى ثم يتمخض الأمر عن صفر كبير تلقيه الهيئات الدولية فى وجه الفهلوى المصرى.

والفهلوى تراه يتحدث عن إمكانات مصر السياحية التى لا تبارى مـن وجـود ٤٠٪ من آثار العالم فى مصر، ومن شمس ساطعة إلى جو معتدل، ويعلن أن عدد السـائحين قـد وصل رقـما قياسـيا وهـو ٦ مليـون سـائح، ولكنـك للأسـف تكتشـف فيما بعـد أن فرنسـا وأسبانيا يزور كل منها حوالى ٤٠ مليون سائح سنويا على الرغم من افتقارهمـا لهـذا الكـم الهائل من الآثار الذى نمتلكه.

والفهلوى يعلن أن الإرهاب انتهى فى مصر إلى غير رجعة وأن الأمور أصبحت كلها تحت السيطرة، وأنه تم القبض على فلول الإرهابيين ثم تفاجأ بعدها بأيام بحدث إ رهابى مروع تتلوه حوادث أكثر ترويعا.

وتظهر الفهلوة واللف والدوران بشكل صريح وفج فى فترة الإنتخابات حيث تجد الإعلانات المليئة بالأكاذيب والنفاق والوعود البراقة، وإعلانات التأييد والمبايعة التى يشارك فيها الأجنة وهم بعد فى بطون أمهاتهم ويشارك فيها الأموات الذين أفضوا إلى ربهم، وكأن سلوك الفهلوة لدى الشخصية المصرية سلوكا أبديا يسبق الميلاد ويستمر حتى بعد الوفاة. وتخلو الدعايات الإنتخابية عندنا من البرامج الموضوعية التفصيلية الجادة، وتلجأ بديلا عن ذلك إلى شعارات عاطفية أو دينية أو تاريخية يتم من خلالها خداع الناخب، ولو لم تنجح هذه الوسائل فالتزوير ومنع الناخبين من الوصول إلى اللجان الإنتخابية وسيلة سهلة لتحقيق المطلوب.

وتصل الفهلوة إلى بعض الدعاة والأدعياء حيث يميلون إما إلى تملق السلطة (بالفتاوى الميسرة والمبررة للإستبداد والفساد) أو تملق الجماهير (بالروشنة الدعوية والمظهر النجومى وفتاوى التيك أواى وتسطيح الدين بما يتناسب مع ذوق مشاهد الفضائيات الذى لايحتمل ذوقه إلا نوع من التدين الخفيف الممزوج بالمتبلات والمسبوق بالسلطات والمخللات).

والإعلام فى أى بلد يفترض أنه كاشف للحقيقة وموقظ للوعى ومحرض على التغيير نحو الأفضل والأجمل والأصلح، ولكن سلوك الفهلوة حين غزا الإعلام شوه هذه الصورة حين سوق لخطاب إعلامى مزدوج ومزيف، يروج للأكاذيب، ويمدح ويهلل لكل صاحب سلطة ويمجد فيه وربما يقدسه، ويلمع أنصاف الموهوبين ويفرضهم على الناس، ويصنع نجوما وقيادات من ورق ويسوقها للجماهير المخدوعة بالبريق الإعلامى والإلحاح المتكرر، وبهذا يصبح الإعلام أداة ترويج وتدعيم لوباء الفهلوة، بل إنه يعطى لسلوك الفهلوة شرعية واحتراما على أنه سلوك مقبول وأنه ينم عن ذكاء وحسن تصرف، وتقدير للأمور، ومراعاة للظروف. والإعلام المزيف يعطى للناس دروسا عملية

ومهارات فى لبس الأقنعة والتزييف، وتصبح الأصوات الصادقة والأصيلة والأمينة نشازا فى هذا الوجه أو يصبح صوتها خافتا ضعيفا وسط جوقة التهليل والتزييف.

عالم المال والإقتصاد يظهر الفهلوى فى صورة مستثمر يقترض أموال البنوك أو يجمع أموال الناس تحت أى شعار، ويعطى ضمانات وهمية ويؤسس شركات ورقية، وينشر ميزانيات خادعة، وفى لحظة المواجهة أو الإنكشاف يهرب إلى الخارج وقد سبقته الأموال عبر البنوك لكى ينعم بها هناك، ومن هنا تقلصت وضعفت قيم العمل الجاد الدؤب، وحل محلها قيم الكسب السريع بدون جهد وفى أقصر وقت ممكن وبأى وسيلة، وشعار هؤلاء «خذ الفلوس واجرى»، وهناك من يمكنهم من أخذ الفلوس ثم يمكنهم بعد ذلك من الجرى طالما هو سيأخذ عمولته ويكون فى الخلفية بعيدا عن المحاسبة.

وتصل الفهلوة إلى ذروتها حين تصل لمسئولين كبار يدغدغون المشاعر الوطنية والقومية بشعارات الريادة والسبق الحضارى (أننا أبناء حضارة خمسة أو سبعة آلاف سنة وأننا رواد العالم العربى والإسلامى وأن العالم يتعلم منا ومن قادتنا الحكمة)، ويغطون التخلف والجمود على كل المستويات بأرقام خادعة تعكس إنجازات وهمية، ويبررون الهزائم والنكسات والإنكسارات ويحولونها إلى انتصارات تاريخية تستوجب أجازات رسمية للإحتفال بها، وتمتلئ الخطب والتصريحات بالمغالطات والمبالغات والتهويلات، ويكتفى بالكلام والشعارات الرنانة بعيدا عن التخطيط العلمى والعمل الدؤب والفعل الجاد والإنجاز النوعى المتراكم.

فنحن بلد له دستور مكتوب ومع هذا تسير الحياة فى واد والدستور فى واد آخر، فالدستور اشتراكى والحياة اليومية الواقعية والرسمية رأسمالية، ولدينا أشكال ديموقراطية (انتخابات نيابية ورئاسية) ولكن الواقع ليس ديموقراطيا بالمرة، وإنما يكتفى بإطلاق صراخ وصياح وسباب فى صحف معارضة أو مستقلة دون أن يكون لذلك صدى، كأنما يكتفى بالكلام والصراخ بديلا للفعل والتغيير.

وحين ينتشر الإرهاب فى العالم ويكتشف الآخرون أن غياب الديموقراطية وانتشار الفساد فى مصر والعالم العربى وراء هذه الظاهرة المهددة للعالم كله، وحين تشتد المطالبة

بإصلاحات سياسية، تظهر الفهلوة المصرية فى الإلتفاف والمراوغة والتحايل، وعمل بعض التغييرات الشكلية، وإطلاق التصريحات اللفظية، وعقد بعض الندوات والمؤتمرات بهدف امتصاص الضغط الخارجى، وإبقاء الحال (المائل) على ما هو عليه.

والفهلوى يهتم بالشكل دون المضمون ويهتم بالكلام بديلا عن الفعل، ويمارس حالة من الإزدواجية تمكنه أن يقول مالايفعل ويفعل مالا يقول، ويمارس حالة من الخداع لغيره تنقلب بعد فترة إلى الخداع لنفسه، وبالتالى تغيب الحقيقة عن الجميع وتغيب البصيرة اللازمة للتغيير، إذا افترضنا وجود نية للتغيير، وهذا أخطر مافى سلوك الفهلوة من الناحية النفسية والإجتماعية.

وهكذا نجد أن الفهلوة لم تصبح سلوكا فرديا لدى البائعين الجائلين أو منادى السيارات على الأر صفة أو المسهلاتيه أو المشهلاتيه من السعاة وعمال البوفيه فى المصالح الحكومية، وإنما أصبح سلوكا عاما لم ينج منه أحد على أى مستوى مهما علا أو نزل، وأصبح وباءا عاما لم تخل منه طبقة من الطبقات.

والفهلوى فى التوصيف النفسى هو شخص لديه سمات سيكوباتية، وليس بالضرورة أن يكون سيكوباتيا بالمعنى الإصطلاحى المعروف، وهذا يعطيه قدرة على الخداع والمناورة، فهو كثيرا ما يبدو خفيف الظل، خفيف الحركة، يغرى بالقدرة على تخليص الأمور الصعبة والمعقدة، ويغرى بالرغبة فى المساعدة فى حل المشكلات العويصة، فكل عقدة عند الفهلوى لها ألف حل، وكل شخص عنده وله مفتاح وثمن، والفهلوى لايحل المشكلات بالطرق المعهودة من العمل والمثابرة والتفكير والتخطيط وإنما يتخطى كل ذلك ويتجاوزه ويلجأ إلى الطرق الخلفية والخفية والسريعة بصرف النظر عن مشروعيتها. والفهلوى بهذه السمات السيكوباتية يميل لأن يبدو مهذبا، وهناك تعبير «السيكوباتى المهذب» والذى تراه فى مستويات وظيفية أو قيادية أو سياسية عالية يتحدث بهدوء وأدب، ويعطيك شكل الأشياء دون جوهرها لأنه يعرف حرص الناس على الشكل فهو لا يصدمهم بانتزاع الشكل، فيحافظ على الظاهر قانونيا أو أخلاقيا مع الإحتفاظ بحقه فى العبث بالجوهر أو انتزاعه تماما بما يحقق مصلحته. والمحافظة على

الشكل تحمى الفهلوى من المساءلة والإنتقاد وتجعله قادرا على المناورة والدفاع عن نفسه إذا حاول أحد كشفه أو محاسبته، وهذا مما يرسخ لسلوك الفهلوة ويحبط كل محاولات الإصلاح الجادة، حيث تصطدم كل هذه المحاولات بأن كل شئ تمام على مستوى الشكل، ولا تستطيع أن تثبت غياب المضمون أوتشوهه لأن الفهلوى (أو السيكوباتى المهذب) لديه القدرة عل المناورة والجدال، تلك القدرة التى ربما يفتقدها دعاة الإصلاح بحكم طبيعتهم المستقيمة والبريئة.

وتتبدى سمات الفهلوة فى الشخصية المصرية من خلال بعض الألفاظ الدارجة على ألسنة الناس مثل: «إحنا اللى دهنا الهوا دوكو».... «إحنا اللى خرمنا التعريفه».... «إحنا اللى علمنا النمل يمشى طوابير»... «نعمل من الفسيخ شربات»... «بنفهمها وهى طايره».... «حلنجى»..... «بتاع التلات ورقات»..... «حاوى»..... «ألعبان»..... «زى الزيبق».

وعلى المستوى الفنى يكفى أن تتابع بعض المسلسلات المصرية لتكتشف أنها فى معظمها مليئة بوسائل اللف والدوران والإلتواء، وادعاء القدرة بلا قدرة، والإحتيال، والخداع، والمبالغات، والسخرية، واذدواجية الخطاب، باختصار تجد نفسك أمام سمات الفهلوة المصرية فى قالب فنى. وفنون الكوميديا تفوقت على سائر الفنون فى إبراز سمات المصرى الفهلوى فى قالب ساخر ظريف به الكثير من المبالغات والمفارقات التى تبرز السمات الفهلوية، وأكثر من نجح فى تقديم هذه الشخصية على المستوى الكوميدى هو الفنان عادل إمام حيث يمتلك ملامح وجه المصرى الغلبان ويمتلك أيضا تركيبة جسده المنهك المطحون ولكنه فى نفس الوقت يحاول التكيف مع الظروف من حوله بالسخرية أو ادعاءات البطولة الخارقة، أو التنكيت على من يقهره، أو الحيلة الذكية اللطيفة للخروج من المآزق، أو استخدام توريات لفظية تحمل معان مزدوجة أو متعددة. وربما يكون هذا هو سر تفوق عادل الإمام الرهيب حيث أنه قد هضم الشخصية المصرية تماما وأعاد إخراجها بوسائل توصيل لفظية وغير لفظية غاية فى البراعة لذلك تصل إلى الناس بسرعة البرق وتضحكهم على أنفسهم التى يرونها فى مرآته الصافية التى التقطت كل تناقضات

الشخصية المصرية فى قوتها وضعفها، ولذلك لقبه المصريون بالزعيم بما يعنى أنه زعيما للكوميديا أو زعيما للفهلوة فى فنه أو زعيما للشخصية المصرية. ويليه فى هذه المقدرة على إبراز شخصية الفهلوى الفنان أحمد آدم، فهو قصير القامة و ضعيف البنية، ولكنه يحاول التعايش مع الظروف التى تقهره بتبنى روح المرح والسخرية، وادعاء الكرامة والغلبة والقدرة اللامتناهية على التاثير فى الأحداث ولكنه فى النهاية يكتشف أنه معرض طول حياته للبهدلة فيسخر من كل هذه المواقف حتى يظل واقفا على قدميه الصغيرين.

وبعد هذا الإستعراض لصور ومظاهر الفهلوة فى الشخصية المصرية وفى الحياة المصرية، نود الإشارة لدراسة مبكرة للدكتور حامد عمار عن أحوال المجتمع المصرى والشخصية المصرية ضمنها كتابا بعنوان: «فى بناء البشر: دراسات فى التغير الحضارى والفكر التربوى» صدر فى عام ١٩٦٤ م ، وفى هذه الدراسة القيمة حاول الدكتور عمار أن يحدد سمات مميزة لشخصية المصرى الفهلوى نذكر منها بإيجاز:

١ - **التكيف السريع** والقدرة على التلون مع الموقف ونقيضه، والإدراك فى لمح البرق وفيما يشبه الإلهام بما هو مطلوب فى هذه اللحظة فيستجيب على الفور، وهو قادر على أن يعيش فى أى ظروف ويتعامل مع أى شخصية، ويتباهى بأنه يستطيع أن يلاعب «الجن الأحمر» ويعايش «ملائكة السماء والأرض» فى نفس اللحظة دون أن يجد فى ذلك غضاضة، ودون أن يتطلب ذلك منه جهدا كبيرا. ولذلك استطاع هذا النمط أن يتقبل ويساير كل تغيير، ويتعامل مع كل جديد دون ارتباك أو حيرة، ومظاهر الحياة تدل على هذه القدرة الفائقة، وإن كانت هذه المرونة والقدرة على التكيف السريع تتميز بأمرين: الأول: المرونة والقدرة على هضم وتمثيل كل جديد، والثانى: المسايرة وإخفاء المشاعر الحقيقية. وهذه النزعة هى التى أعطت للمصريين القدرة على التعايش مع حكام وولاة بلغوا غاية فى الظلم والإستبداد، ووجد المصرى أنه إذا لم يذعن فسوف يتعرض للعقاب والنقمة، ولن يجنى شيئا، فأصبح التكيف السطحى فى مثل هذه المواقف من ضرورات البقاء فى ظروف متغيرة لا ضابط لها ولا مقدر لعواقبها. ومع الزمن فإن هذا التكيف السريع الذى كان أسلوب الحماية والوقاية الذى كفل للمصريين البقاء مع التقلبات

السريعة المتلاحقة، تحول إلى وصولية وانتهازية، ثم تركز فى نمط الفهلوة.

٢ – النكتة المواتية: فحين تحاصر المصرى الهموم والأزمات، وتثقل عليه، وتنقلب أمامه الأمور تقلبا لم يشارك فيه، فإنه يشارك فى الأحداث بالتعليق الساخر عليها، ويطلق النكتة بعد النكتة، فيضحك، ويخفف بذلك من التوتر العصبى الذى كان يمكن أن يدفعه إلى الغضب، ويستريح بما تحققه له السخرية بالذين انفردوا بالعمل من ترضية، وتصرفه عن الواقع إلى عالم من الخيال والمرح، وهذا ما جعل أحمد أمين يقول فى كتابه الشهير «قاموس العادات والتقاليد المصرية» : إن النكتة كانت سلاحا مصريا يلجأ إليها المصرى تعويضا عما أصاب الشعب من كبت سياسى واجتماعى، وتنفيسا له من الضائقات التى تنغصه، مما يجعل الحياة أمرا محتملا. والنكتة عند المصريين تختلف عن النكتة عند غيرهم من الشعوب، فهى أولا إحدى السمات المميزة للشخصية المصرية، فهو يستمتع بتأليف النكتة والإستماع إليها حتى لو تكرر سماعه لها، وأهم الوظائف التى قامت بها النكتة المصرية هى التغطية على الموضوع، وأخذه على المحمل الهين، والإنصراف عنه انصرافا يعفى من التفكير فيه تفكيرا جديا، وكأن «فرقعة»النكتة تكفى لإنهاء المشكلة، أو هى فى حد ذاتها حل لها (راجع النكت السياسية فى فترات الحكم الإستبدادى وما أكثرها فى حياة المصريين وستكتشف أن النكتة كانت تصرف طاقة الغضب اللازمة للتغيير وبذلك يظل الأمر على ماهو عليه).

٣ – المبالغة فى تأكيد الذات والإلحاح على إظهار قدرة فائقة: وهناك فرق بين الثقة بالنفس الناتجة عن الطمأنينة الداخلية والإدراك الواعى للقدرات والظروف من ناحية والموقف الخارجى من ناحية أخرى، وبين تأكيد الذات الناجم عن فقدان الطمأنينة، وعدم الرغبة، وعدم القدرة أيضا، على تقدير المواقف تقديرا موضوعيا، وإحساس داخلى بعدم الكفاءة، وشعور بالنقص أمام المواقف يحاول إخفاءه بالتهكم على الآخرين، أو بادعاء المقدرة الخارقة على حل العقد بما يشبه المعجزة، وإنجازها «هوا»، أو عمل كل شئ بالإصبع، أو حل المعضلة بجرة قلم.

ومن سمات «الفهلوة» المبالغة فى تأكيد الذات (إخفاءا لشعوره بالضآلة) وبما يعرف

عادة بأنه «القنزحة» فى الكلام والسلوك، ولعل معظم ما نراه من البذخ فى العزائم، أو المبالغة فى تأكيد «الكرامة الشخصية» بمناسبة وبدون مناسبة، والإهتمام المبالغ فيه بالشكليات فى المناسبات والأفراح والمآتم، وكل ما يتصل بالمظهر أو «واجهة الشخصية» للفرد أو للجماعة، ليس إلا تعبيرا عن الرغبة فى تأكيد الذات، وليس غريبا أن تكون «الكلمة الحلوة» هى التى يأسر بها المصرى غيره، وتجريح الغير و «التريقة» عليه فى غيابه جزءا من سلوك الكثيرين، ومن يستطع أداء هذا الدور ببراعة يحظى عادة بالإعجاب، فالتهوين من قدر الآخرين ومن قيمة أعمالهم هو الجانب الآخر السلبى لتأكيد الذات، والشخص الذى «لا يعجبه العجب ولا الصيام فى رجب» هو وحده الذى «يفهمها وهى طايره» وهو الذى يستطيع أن «يجيب الديب من ديله».

٤ – **العلاقة الملتبسة مع السلطة**: فالفهلوى برغبته الدائمة والملحة فى تأكيد الذات يشعر فى قرارة نفسه بالسخط على الأوضاع التى توجد التمايز والتفرقة أيا كان نوعها، مهما كانت أسبابها ومبرراتها، ويتفرع من ذلك عدم الإعتراف بالسلطة أو الرئاسة، والتنكر لها فى أعماق الشعور، مع أنه فى الظاهر يبدى الخضوع ويستخدم عبارات فيها مبالغة شديدة للتفخيم (أفندى و بيه و باشا، سعادة الباشا)، ويلجأ إلى طقوس زائدة عن الحد للتعبير عن الإحترام، ويخفى كل ذلك الشعور بالإمتعاض، ويعبر عنه أحيانا بقوله: «فلان عامل ريس» أو «عايش فى الدور».

فالفهلوى لا ينظر إلى السلطة أو الرئاسة على أنها ضرورة من ضرورات التنظيم، يتطلبه توزيع المسئوليات وتحمل الأعباء فى التنظيم الإجتماعى أوالإدارى، ولكنه ينظر إليها على أنها قوة قاهرة يذعن لها إذعانا لما تبعثه فى نفسه من الهيبة والخوف.

٥ – **الإسقاط والتهرب من المسئولية**: إن أهم الأسلحة التى تتزود بها شخصية «الفهلوى» هى عملية «الإسقاط»، لكى يزيح المسئولية عن نفسه ويلقيها على غيره من الناس، أو على ظروف خارج نطاق الذات تبرر ما يقع فيه من مواقف الخطأ أو التقصير (وهو ما يعرف فى علم النفس بوجهة الضبط الخارجية حيث يعتقد الفرد أن أحداث حياته تمت بتأثير من الآخرين أو من الحظ أو من عوامل لا يملك التأثير فيها أو تغييرها –

الباحث)، وتزداد الفهلوة بازدياد القدرة على ممارسة هذه العملية النفسية، وبذلك لا يقوم الفهلوى بالعمل نتيجة شعوره الداخلى بالواجب، ولكن بدافع الطمع فى الكسب أو الخوف من العقاب، وما يقوله ويفعله هو دائما «لحاجة فى نفس يعقوب» كما يصفها المصريون، وليس لتحقيق الذات بالعمل الإجتماعى المنتج (ربما يفسر هذا المحاولات المستميتة لدى المصريين للتهرب من العمل، ويؤكد هذا الإحصائية التى بينت أن إجمالى الإنتاج لدى الشعب المصرى يساوى فى المتوسط ٢٧ دقيقة عمل يوميا لكل فرد – الباحث).

ومن مظاهر الإسقاط الواضحة كثرة الشكوى من الزمان والتبرم من كيد الآخرين وإلقاء التبعة فى كل مشكلة على «الحكومة» أو على «البلد اللى من غير عمده» أو على «الإدارة»، أو أى قوة أخرى غير الشخص أو الجماعة المسئولة.

٦ – الفردية وغلبة ال«أنا»، وعدم التوافق مع العمل الجماعى: وليس هذا من قبيل الأنانية لمجرد الأنانية، ولكنه تأكيد للذات من ناحية، وانصراف عن احتكاك الذات بغيرها من ناحية أخرى مما يعرضها لمواقف تنكشف فيها حقيقتها، أو تذوب فيها شخصية الفرد فى شخصية الآخرين. ويضاف إلى ذلك جذور العصبيات القبلية والعائلية، ونقص التربية الإجتماعية، لأن الإنسان يولد بنوازع الفردية والأنانية، ثم ينجح المجتمع أو يفشل فى عملية «التطبيع الإجتماعى» أى جعل الفرد يتخلى عن جانب كبير من فرديته والإندماج فى الجماعة واكتساب القدرة على التفاهم والتعاون والعمل بجدية وإخلاص مع الآخرين، وفى ظل تنظيم اجتماعى أو إدارى أو قانونى، فإذا لم تتم عملية التطبيع الإجتماعى كما يجب فإن شخصية الفهلوى تظهر وهى تجيد إظهار الموافقة، ومسايرة الآخرين والتعاون معهم، ولكنه يتخذ هذه المواقف الشكلية من قبيل المجاملة، أو الخوف من الحساب أو العقاب، فيتظاهر بالعمل مع الجماعة ولكن بلا روح ولا التزام، وهذا هو سر الشكوى من غياب «روح الفريق» والقدرة على العمل الجماعى فى ظل قيادة (راجع فشلنا المزمن فى الألعاب الجماعية مثل كرة القدم خاصة على المستوى العالمى، وتذكر دائما صفر المونديال – الباحث)، ولتحقيق هدف عام وليس لهدف شخصى، بولاء

للجماعة، وفى الأمثال المصرية الكثير مما يعبر عن الروح الفردية مثل «حصيرة ملك ولا بيت شرك»، ويظهر ذلك أيضا فى تعبير كل فرد «أنا عملت» بدلا من «احنا عملنا». بينما سر القوة والنجاح فى الدول الكبرى فى هذا العصر هو أنها تؤمن بروح الفريق، وبالعمل الجماعى، وبتعاون عدة أفراد معا وكأنهم كيان واحد، ينسب إليهم جميعا النجاح، وينال كل فرد فى الجماعة نصيبه من هذا النجاح الجماعى.

٧ – **الحرص على الوصول إلى الغنيمة بسرعة ومن أقصر الطرق دون الإعتراف بالمسالك الطبيعية**: ولذلك يبحث الفهلوى دائما عن وسيلة تجعله يقفز على المراحل، ويتخطى الحواجز، باللجوء إلى الكذب أو التزوير أو الوساطة، أو الرشوة أو الغش، فإذا وجد أنه لن يصل إلى الهدف إلا بالطريق الطبيعى كغيره، وأن هذا الطريق يحتاج إلى المثابرة والصبر واتباع خطوات لابد منها، فإن الحماس للعمل ينطفئ فى لحظة، فالطالب لا يعترف بأن الإستذكار وسهر الليالى للفهم والإستيعاب هى الوسائل الطبيعية للنجاح فى الإمتحانات، والفهلوى منهم يريد أن يصل إلى النجاح بدون هذا العناء... بالغش أو بمحاولة شراء الإمتحانات ورشوة الآخرين (أو بالدروس الخصوصية التى تصنع كائنات امتحانية تحقق تفوقا شكليا مؤقتا – الباحث)، والعامل لا يريد أن يضيع وقته فى الإتقان والتشطيب لكى يبلغ الكمال، ولكنه يفضل «الكلفتة»، والجماعات التى يحركها الحماس لإقامة مشروع لا يستمر حماسها بعد ذلك لمتابعة استمرار المشروع ورعايته وصيانته.

والآن نسأل أنفسنا: مالذى جعل الشخصية المصرية تصاب بهذا الداء بشكل وبائى مستعص لم ينج منه إلا القليلون؟

يرجع معظم المفكرون والباحثون هذا السلوك إلى العلاقة السلبية للمصريين بالسلطة على مر العصور حيث تعرض المصريون على طول تاريخهم لفترات استعمار واستبداد وقهر وتسلط مما كان يفوق قدرتهم على المقاومة أو التغيير فى كثير من الأحيان، ونظرا لتكرار هذه الخبرات السلبية تعلم المصرى أساليب للتكيف والمواءمة تتضمن تحايلا على المستعمر أو المستبد، خاصة أن الحاكم فى مصر يتحكم فى ماء النيل أى فى لقمة العيش

للناس، ففى مجتمع النهر يصبح الحكم مركزيا لأنه يتحكم فى شريان الحياة لسائر الناس، وهذا عكس المجتمع الرعوى الذى يعتمد على المطر وبالتالى تكون حركته وإرادته فردية ومستقلة نسبيا ويحكمه نشاط المطر الذى لا يحكمه أحد من البشر.

يقول الدكتور حامد عمار فى ذلك: «الفهلوى برغبته الدائمة والملحة فى تأكيد الذات يشعر فى قرارة نفسه بالسخط على الأوضاع التى توجدالتمايز والتفرقة أيا كان نوعها، ومهما كانت أسبابها ومبرراتها، ويتفرع من ذلك عدم الإعتراف بالسلطة أو الرئاسة، والتنكر لها فى أعماق الشعور، مع أنه فى الظاهر يبدى الخضوع ويستخدم عبارات فيها مبالغة شديدة للتفخيم (لاحظ كثرة استخدام الألقاب الرنانة فى المجتمع المصرى: بيه، باشا، سعادة الباشا، سعادة الريس،..... إلخ – إضافة من الباحث)، ويلجأ إلى طقوس زائدة على الحد للتعبير عن الإحترام، ويخفى كل ذلك الشعور بالإمتعاض. والفهلوى لاينتظر من السلطة المقتدرة أى نوع من الألفة أو رفع الكلفة، ويتوقع منها أن تكون على عكس ذلك، حازمة وصارمة، وكأنما ذلك من لوازم السلطة. ويرجع هذا الشعور بالخوف من السلطة أو الهيبة من أصحابها إلى الظروف التاريخية التى تعاقبت على شخصية المصرى من علاقته بالحاكم، واستجابة المحكومين، وقد وصف الجبرتى شعور الأهالى نحو الملتزم بجمع الضرائب، فكان الفلاحون يهابون الملتزم القوى، أما إذا كان ذا رحمة بهم استهانوا به واذدروه فى أعينهم وسموه بأسماء النساء» (عن كتاب: المصريون فى المرآه، مكتبة الأسره ٢٠٠٠).

ويضيف الأستاذ على سالم: «نحن نباهى الأمم صغيرة السن ذات التاريخ القصير الذى لا يتعدى عدة مئات من السنين انشغلت فيها ببناء الديموقراطية، بأننا اقدم منها وننسى أننا نحكم أنفسنا منذ أقل من خمسين عاما فقط، ولابد من الإعتراف بأن مئات السنين من الحكم الأجنبى المستبد أرست فى عقولنا قواعد راسخة للفهلوة.. عقولنا مدربة على نحو شبه غريزى على الحذر من الحكومة وعمل المستحيل للإفلات منها، من قوانينها ولوائحها وتعليماتها، ثم شن حملات مضادة عليها عندما تحين لنا الفرصة، حتى الآن يداخلنا شك فى أننا نحكم أنفسنا، وفى المقابل سنجد الذين وصلوا إلى مواقع الحكم

والسلطة يتوحدون على الفور بنفسية ذلك المملوك القديم المستورد من الخارج التى امتلأت أبعادها بالقسوة والحذر من هذا الشعب «النمرو»، وهكذا تستمر علاقات الحذر والتربص بين الحكومة والأهالى كامتداد لا واع لآليات الواقع فى الحكم الأجنبى «(على سالم،» وشاح الفهلوة «، روزاليوسف، ٣٠/ ٣/ ٢٠٠١)

وحين عاود الدكتور حامد عمّار النظر فى الشخصية المصرية فى التسعينيات وجد تحولات أخرى أكثر خطورة ذكرها فى المحاضرة التذكارية التى ألقاها فى المؤتمر العلمى السنوى لرابطة التربية الحديثة فى يوليو ١٩٩٤، حيث وجد أن مسيرة التيارات السياسية والإجتماعية والإقتصادية فى العقدين الماضيين قد أوجدت خللا ملحوظا فى فى عقيدة الإنتماء الوطنى والقومى... وكذلك اضطربت العلاقات بين الفرد والجماعات والدولة، وأدى ذلك إلى أن يكون حرص الفرد أو الجماعة متجها نحو الخلاص الذاتى، وإلى تغليب المصالح الخاصة، وإلى ولاء محلى وعشائرى ضيق، مما قد يتعارض فى كثير من الأحيان مع قيم الوطن والمواطنة الرشيدة فى إطار الحق والواجب، ومن هنا ظهرت أعراض الفساد والإفساد.... وأعان على ذلك التوجه ما ساد مصر فى فترة السبعينيات من رخاء مؤقت، وما انتهزه البعض من فرص الإنفتاح، والإستغلال والمضاربات، والأرباح السريعة المذهلة، وأوهام شركات توظيف الأموال، والبحث عن النفوذ الخاص، هى العوامل المتحكمة فى طريق القيم والعمل..... وذلك اللهاث نحو الإستهلاك المفرط والمستفز بإعلاناته، ومظاهر الحياة اليومية، أدى إلى هشاشة العلاقات، وشيوع نمط شخصية «الهبّاش» الذى يخطف بسرعة بقدر ما يستطيع، ويجرى قبل أن يلاحقه حساب القانون أو حساب المجتمع.... وهكذا جاءت شخصية الهبّاش بعد شخصية الفهلوى (نقلا عن كتاب المصريون فى المرآة لرجب البنا).

وقد ظهر هذا الهباش فى صور كثيرة منها رجال الأعمال الذين «يهبشون» أموال البنوك ثم يهربون إلى الخارج، أو رجال السياسة الذين يهبشون السلطة للأبد، أو المرشحين الذين يهبشون المقاعد بشراء الأصوات علنا وبمبالغ متزايدة أمام اللجان، أو يستأجرون البلطجية مقابل ألف جنيه فى اليوم الواحد لإرهاب المواطنين، أو تسخير

قوات الأمن لحساب أحد الأحزاب أو أحد الأفراد لتمنع الناس من الوصول إلى لجان الإنتخابات، أو تزوير إرادة الناخبين عند إعلان النتائج. وهناك صور أخرى على المستوى الفردى ومنها الموظف الذى لا يقضى مصلحة إلا بعد أن يأخذ مقابلا لها، وأحيانا يأخذ ويهرب، ومنها العامل أو الفنى الذى يأخذ أجرا ولا يتقن عملا،.....،..... وهكذا نماذج عديدة فى كل مستويات المجتمع من أعلاه إلى أدناه، حتى كادت تكون شخصية الفهلوى وشخصية الهبّاش هى القاعدة، وأصبحت النماذج الشريفة المخلصة (وهى موجودة فعلا) تشكل استثناءات تدعو للعجب، فمثلا حين يرفض أحد ضباط حرس الحدود رشوة، يكرمه الوزير لأمانته، وكأن القاعدة المتوقعة أن يقبل الرشوة، وأنه حين رفضها قام بعمل استثنائى، وأيضا حين صدعت المستشارة البطلة

«نهى الزينى» بكلمة الحق فى تزوير انتخابات دمنهور اعتبرها الشعب المصرى بطلة عظيمة (وهى فعلا كذلك) مع أن المتوقع – فى الظروف الطبيعية – أن تكون المستشارة على هذا المستوى العالى من النزاهة والشجاعة والجرأة.

ونتيجة لشيوع شخصية الهبّاش فقد انتشرت على ألسنة الناس مفردات جديدة مثل: «هبر».... «هبش»..... «تسليك»..... «تقليب»..... «شفط»..... الخ.

***

التدين عند المصريين

يبرز عنصر التدين كعنصر فاعل وأساس وشديد الأهمية فى الشخصية المصرية، وهو يكاد يكون مفتاحا مهما لفهمها (بجانب مفتاح الفهلوة الذى برز فى العقود الأخيرة أكثر وضوحا)، وذلك نظرا لتراكم الخبرات الدينية من الأديان المختلفة وتلاقيها وتناميها على أرض مصر، فعلى أرضها نشأت الديانات المصرية القديمة التوحيدية منها والوثنية، وانطلق موسى عليه السلام من الوادى إلى سيناء ثم عاد إلى مصر مرة أخرى وتمركزت اليهودية فى فلسطين ومصر، ولاذت مريم بوليدها عيسى عليه السلام إلى مصر ثم عادت به إلى فلسطين وتمركزت المسيحية فى فلسطين ومصر معا، ثم ظهر الإسلام فى أرض الحجاز وجاء الفتح الإسلامى على يد عمرو ابن العاص لتكون مصر بعد ذلك مركزا إسلاميا هاما حتى تلك اللحظة وخاصة مع وجود الأزهر منذ أكثر من ألف عام كأكبر جامعة إسلامية. ويصور جمال حمدان علاقة المصرى بالدين بقوله: «ومن الناحية الدينية البحتة لم تنفصل مصر كذلك عن الحلقة السعيدة قط، سواء قبل الإسلام أو بعده. فمن الحقائق اللافتة للنظر أن مصر كانت دائما طرفا فى قصة التوحيد بفصولها الثلاثة، فمواطن الأديان التوحيدية فى فلسطين وسيناء والحجاز ترسم فيما بينها مثلثا أو سهما رأسه يشكل مماسا لمصر فى سيناء، فقد انصبت هذه الرسالات جميعا فى مصر على التوالى، وإن كانت كل فرشة منها تطغى وتغطى على سابقتها حتى سادت آخرها فى النهاية. وإلى هذا فإن مصر لعبت فى مراحل الدعوة إلى ثلاثتها دورا أو آخر، فكانت لموسى قاعدة ومنطلقا و ولعيسى ملجأ وملاذا، بينما كانت مع النبى محمد هدية ومودة» (جمال حمدان ١٩٩٣، شخصية مصر، كتاب الهلال).

والتدين من الناحية النفسية هو نزعة فطرية يصعب على الإنسان أن يتجاهلها أو يعيش بغيرها، ويؤيد هذا الكلام استقراء تاريخ البشر فى الحضارات المختلفة وفى المجتمعات المتباينة، فقد تجد مجتمعا بشريا بلا مصانع أو مدارس أو علوم أو فنون أو

فلسفات أو قصور أو زراعات ولكن يصعب أن تجد مجتمعا إنسانيا بلا معابد أو كنائس أو مساجد أو رموز دينية. فإذا كان التدين صفة إنسانية أصيلة مرتبطة بغريزة نسميها «ريزة التدين» قوامها البحث عن الله والتوجه نحوه بالعبادة والتضرع والإحتماء به من صروف الدهر واستلهام الرشد والعون منه، إذا كان كل هذا موجود فى كل البشر إلا أنه فى الشخصية المصرية أكثر وضوحا وامتدادا وعمقا وتأثيرا للدرجة التى جعلت مؤرخا كبيرا مثل هيرودوت يصف المصريين بأنهم «أكثر شعوب العالم تدينا»، وقد يكون ذلك راجعا إلى الطبيعة الزراعية التى ترمى البذرة وتنتظر نماءها بقوة الله وفضله، أو يكون راجعا لكثرة وقدم الديانات على أرضها ودخول كثير من الأنبياء لها فقد دخلها إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وعيسى عليهم جميعا أفضل الصلوات وأتم التسليم، أو يكون راجعا لظروف وضغوط عاشها ويعيشها الشعب المصرى تدفعه للتطلع دائما نحو السماء بحثا عن الخلاص والعدل.

والتدين فى الشخصية المصرية مرتبط بعناصر التاريخ والجغرافيا كما رأينا، وهو مرتبط أيضا بالطبيعة الزراعية لأرض مصر، فالمصرى القديم والحديث يضع البذرة فى الأرض ويرويها من ماء النيل ثم ينتظر بزوغها ونموها وترعرعها فيرى بذلك تلك القدرة الخفية وراء كل هذا فتترك فى نفسه محبة واحتراما وتقديرا لها، ورغبة محبة ومختارة فى عبادتها والتقرب إليها، ولهذا نجد إلحاح فكرة الدين والتدين على الشخصية المصرية ممثلا فى كثرة المعابد فى طول مصر وعرضها، وكثرة الرموز الدينية فى كل الآثار المصرية بشكل ملفت للنظر، فلا تكاد ترى أثرا مصريا قديما لايحمل تلك النقوش أوالرموزأ والنصوص الدينية، وكان اهتمام المصريين بالحياة الآخرة يفوق اهتمامهم بالدنيا، ولذلك نرى فى آثارهم غلبة القبور والمعابد على القصور والبيوت. وتراكمت الموروثات والعقائد الدينية (صحيحها وباطلها) فى طبقات النفس لدى المصريين وأصبحت من الأشياء شديدة الأهمية لديها والتأثير فيها بحيث يندر أن ترى سلوكا لدى المصريين إلا ووراءه مفهوم أو دافع دينى سواء كان ظاهرا أو قابعا فى أعماق وعيه. ولهذا لا نستغرب حين نرى المصرى حتى وهو يقوم بأعمال منافية للدين يستخدم عبارات دينية فاللص مثلا يمكن أن

يقول: «يا مسهل وهو يفتح خزينة ليسرقها، والمطربة تذكر بعضا من أسماء الله أو أسماء الرسول وهى تغنى غناءا عاطفيا صارخا، والراقصة كذلك، والجالسين على المقاهى يتعاطون المخدرات تجد لغتهم مشبعة بالعبارات والألفاظ الدينية ، وإذا حدث شئ جلل تكتشف أن بداخل كل هؤلاء حمية دينية كبيرة. ولم تخلف الحضارات المتعاقبة فى مصر أكثر مما خلفت من المقابر والمعابد الكنائس والمساجد والنقوش والمخطوطات، وكلها تدور حول الإله أو الآلهة (كما يتصوره أو يتصورها المصرى فى عصره) وحول البعث والخلود، ويدهشك ثراء المادة المعرفية فى كل هذا بشكل ملفت للنظر للدرجة التى جعلت بعض المؤرخين يصفون مصر بأنها «بلد العقيدة الدينية».

ولم يقتصر الدين والتدين على الجانب المعرفى ولكنه تجلى بوضوح فى الجانب المعمارى والجانب الفنى والجمالى، فأضخم وأروع وأجمل ما خلف المصريون فى تاريخهم الممتد يرتبط ارتباطا وثيقا بعقيدتهم الدينية حسب تصورهم لها فى كل مرحلة، ففى الحقبة الفرعونية تجد الأهرامات الشامخة (معجزة البناء والتشييد بمقاييس كل العصور) وترى المعابد الرائعة والمسلات العالية المذهلة، والكنائس ذات النقوش والرسوم التى تعكس روحانية وسماحا،والمساجد الفخمة ذات القباب والمآذن التى تنطق بالقداسة وتشهد بالوحدانية للإله وبعظمة البانى وقدرته وتفوقه وبسر الحضارة الإسلامية الخالدة. باختصار نستطيع القول بأن الشخصية المصرية مشبعة بالدين فى مراحل نموها المختلفة عبر العصور. وقد دفع هذا بعض المؤرخين لأن يقولوا بأن الإنسان المصرى قد عرف التوحيد قبل أن تتنزل به الأديان السماوية، وهذا القول قد يكون صحيحا إذا كان مقصده قبل الأديان السماوية الكبيرة وهى اليهودية والمسيحية والإسلام، أما إذا كان يقصد أن المصريين القدماء قد عرفوا التوحيد قبل الأديان السماوية عموما وأنهم عرفوه بعقلهم المجرد واجتهادهم الشخصى فهذا قول باطل ليس عليه دليل لأن التوحيد هو دين آدم أبو البشر، وأكثر أهل العلم على أن آدم عليه السلام كان نبيا، وجاء بعده أنبياء كثر بعضهم معروف لنا وبعضهم غير معروف، إذن فالتوحيد هو الأصل، أما الكفر والشرك فإنها أشياء عارضة وانحرافات طارئة كانت تصيب الناس ردحا من الزمان فيجيئهم نبى

أو رسول يصحح معتقداتهم ويعيدهم إلى التوحيد الخالص مرة أخرى.

والنفس المصرية بطبيعتها مثل الأرض المصرية سهلة منبسطة مطواعة تستقبل الدين (كما تستقبل الأرض الماء والبذور) فينمو بداخلها ويترعرع، وإذا كانت أرض مصر ينبت فيها القمح والشعير والأرز والقطن والخضروات والفواكه، وبجانب ذلك تنبت فيها الحشائش الضارة التى تستدعى تنقية من الفلاح من وقت لآخر، فإن النفس المصرية قابلة لنمو المعتقدات الدينية الصحيح منها وغير الصحيح، وهذه سمة ملحوظة جعلت الأديان حين تدخل إلى مصر تتشكل بالطبيعة المصرية فيضاف عليها أو ينقص منها ما يناسب هذه الطبيعة، وهذا ما جعل الدكتورة نعمات فؤاد تقول عبارتها المشهورة بأن مصر استقبلت المسيحية فمصرتها واستقبلت الإسلام فمصرته، وهذا ما نشهده من عادات المصريين وتقاليدهم فى المناسبالت والأعياد تلك العادات والتقاليد التى أضيفت إلى صحيح الدين وأخذت وضعا دينيا فى وعى عامة الناس وبعض من خاصتهم. ويمكن تفسير هذه الحالة من الإضافة والحذف إلى أى دين جديد يدخل مصر بوجود حالة دينية قائمة وممتدة ووجود الكثير من المعتقدات الدينية السابقة والراسخة، وهذه المعتقدات يصعب على المصرى التخلص منها بعد اعتناقه لها آلاف السنين بمجرد دخوله فى الدين الجديد، لذلك يظل يحتفظ ببعضها مضافا إلى دينه الجديد. وقد كانت هذه الخاصية سببا فى تنامى الكثير من المذاهب الكلامية والفرق الدينية على أرض مصر وكأن أكثرها ظهورا التشيع والتصوف، فقد وجد الفاطميون فى مصر أرضا خصبة لاستقبال المذهب الشيعى فنشروه بها لسنوات طويلة إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبى واجتث هذا المذهب من جذوره وأعاد مصر إلى المذهب السنى مرة أخرى. وقد كان أحد المداخل الميسرة لتشيع المصريين محبتهم للرسول ﷺ ومحبتهم لآل يبيته الكرام رضوان الله عليهم، فالمصريون ذوو عواطف جياشة وهم غالبا ما يستقبلون الدين على المستوى العاطفى أكثر مما يستقبلوه على المستوى العقلى، لذلك نشر الفاطميون مذهبهم الشيعى فى مصر لمئات السنين بناءا على هذه الخصائص فى الشخصية المصرية. والمصريون بجانب عواطفهم الجياشة ومحبتهم لآل البيت يتمتعون بحس فنى عال وخبرات روحية عميقة ومتعددة

المستويات وحاسة ذوق عالية لرقائق الدين وأسراره وروحانياته وجماله، وكانت هذه الخصائص مدخلا هاما لدخول التصوف وتمدده وانتشاره فى ربوع مصر، ففيها تجد أتباع كل المدارس الصوفية، وتجد مدافن عدد كبير من الأقطاب الصوفيين أمثال السيد البدوى (الذى جاء من المغرب واستقر فى طنطا فى القرن السابع الهجرى) وإبراهيم الدسوقى وعبدالرحيم القنائى والمرسى أبو العباس وأبو الحجاج الأقصرى، والشيخ الواسطى (الذى أشاع الطريقة الرفاعية الشهيرة فى مصر)، وأبوالحسن الشاذلى (الذى جاء من المغرب فى القرن الثامن الهجرى وأسس الطريقة الشاذلية) وغيرهم، كما تجد عددا هائلا من قبور وأضرحة الأولياء الصالحين (بعضهم معروف هويته وبعضهم كانت مجهولية الهوية مبررا كافيا لدى العامة لإحاطته بالتعظيم والقداسة)، وانتشار الموالد ذات الطبيعة الإحتفالية التى تتناسب مع طبيعة الشخصية المصرية الميّالة للصخب والمرح والإستمتاع (ربما دفاعا عن حزن عميق فى أعماق النفس). وهؤلاء المتصوفة قد قصدوا مصر عن عمد لمعرفتهم بطبيعة الشعب المصرى وقابليته لكل ما يتعلق بالدين خاصة فى أشكاله الروحية والذوقية والجمالية، وبعضهم كان يلهم ذلك فى منامه أو فى يقظته، فيجيئه هاتف أو خاطر ملح بأن «أذهب إلى مصر فهناك المستقر». ولم يكن التصوف فى ذاك الوقت قاصرا على عامة الناس أو غالبا فيهم – كما هو الحال الآن – وإنما كان متغلغلا بين نسبة كبيرة من علماء الأزهر، ومع هذا بقيت قلة منهم تنكره وتحذر الناس مما ينشره المتصوفون من بدع تخالف صحيح الدين. وربما يفسر انتشار التصوف لدى المصريين طبيعتهم السهلة المستسهلة والتى ترحب بمذهب يحملهم إلى الله بطريقة بسيطة وغامضة وسريعة فى ذات الوقت، فهم يريدون الدخول فى عالم الملكوت بشكل عاطفى روحى يتم فى خلوة أو فى صحبة تنشد أذكارا وتمارس طقوسا جماعية تحرك المشاعر وتطلق كوامن النفس. تلك الطبيعة المصرية التى تضيق بالقيود والضوابط الشرعية الصارمة وتهرب منها إلى حيث من يعدها بفضاءات رحبة وسبحات روحية طليقة وسلسة لا تحتاج إلى كثير معرفة عقلية أو تعقيدات معرفية أو تأويلات فقهية، وهكذا عادة المصريين يرغبون فى الوصول إلى الله بطريقتهم الخاصة رغم إيمانهم بالأديان السماوية وتشريعاتها. وقد جعل هذا مصرا مركزا

للتصوف لعصور طويلة وقد انتشر التصوف منها إلى كثير من الأمصار الإسلامية. وربما يكون للحكام خاصة فى العصرين المملوكى والعثمانى دور فى تشجيع انتشار التصوف فهو يتيح لهم قيادة الشعب المصرى بلا مشاكل، فحالة الذهد والإنصراف عن الدنيا إلى الآخرة تجعل الناس أسلس قيادا، ولهذا حرص الولاة على إقامة علاقات وثيقة مع مشايخ الصوفية وحرصوا على حضور موالدهم واحتفالياتهم، وكان الشيوخ بدورهم يأمرون الناس بطاعة أولى الأمر على أنها مقترنة بطاعة الله وطاعة الرسول. وحين اجتثت الدولة الأموية المذهب الشيعى وأعوانه من مصر بعد أن ذهبت الدولة الفاطمية، وجد المصريون أنفسهم فى حالة فراغ نفسى، فقد كانت الطقوس الشيعية والعادات والإحتفاليات الفاطمية ذات طابع روحى واحتفالى، كما كان الدعاة الإسماعيليون يمثلون مرجعيات روحية للعامة والخاصة من المصريين، لذلك ظهرت الصوفية لملأ هذا الفراغ النفسى والروحى، وربما يكون لبعض ولاة الدولة الأيوبية دور فى تسهيل استعاضة المصريين بالصوفية عن الشيعة والإسماعيلية. ويضاف إلى ذلك أن طبيعة الحياة المصرية فى ذلك الوقت كانت تدعو إلى الزهد والتسليم والإستسلام للمقادير، وإلى البحث عن طرق سحرية وكرامات ومعجزات تخرج الناس مما هى فيه من كرب، فقد كان الناس محاطين بحكام مستبدين من الداخل وغزاة طامعين من الخارج، لذلك راحوا يتطلعون إلى لون من الراحة والسلام فى ظل مفاهيم قدرية وروحية، وقد لعب مشايخ الصوفية دورا مهما فى تخفيف أحزان الناس وآلامهم من خلال القيام بدور تدعيمى ومن خلال وعود مثابرة بقرب انكشاف الغمة والمظالم أو الدخول لعالم الملكوت الرائق والصافى من خلال الكشف والوصول والنفحات الإلهية التى تعلو بالنفس فوق آلام الحياة وتعلقاتها واستمر تأثير الطرق الصوفية واضحا ومؤثرا فى المجتمع المصرى خاصة فى القرى والنجوع حتى منتصف القرن العشرين، وقد ترك هذا آثارا كبيرة فى النواحى الفكرية والوجدانية والسلوكية للكثير من المصريين حتى الآن.

ومن الأدلة على غلبة العادات والتقاليد لدى المصريين على صحيح الدين فى كثير من الأحيان،هذا الكم الهائل من قبور وأضرحة من يسمونهم أولياء الله الصالحين وعدد

الموالد المقامة لهؤلاء الأولياء على الرغم من مصادمة ذلك لتعاليم الرسول الكريم ﷺ والذى ذكر فى حديث صحيح ورد فى البخارى ومسلم «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أوليائهم وصالحيهم مساجد**».

وهكذا اصطبغ التدين فى مصر بالتصوف منذ عهود مبكرة منذ أن غرس ذوالنون المصرى (المتوفى ٢٤٥ ه) بذوره الأولى فى مصر فى القرن الثالث الهجرى، وهناك بعض المؤرخين يرجعون التصوف فى مصر إلى القرن الثانى من الهجرة.

والقابلية العالية للتدين لدى المصريين ربما تفسر لنا ترحيب المصريين بالفتح الإسلامى ودخولهم فى الإسلام بأعداد كبيرة وقبولهم للغة العربية واندماجهم فى الحضارة العربية ولعب دور مركزى فيها لقرون طويلة. وعلى الرغم من مقاومة المصريين العنيدة للغزاة من الهكسوس والإغريق والرومان والتتار والصليبيين والفرنسيين والإنجليز إلا أنهم على العكس تقبلوا الفتح الإسلامى بصدر مفتوح، وتقبلوا الحكام الوافدين من العرب والطولونيين والإخشيديين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين لا لشئ إلا لكونهم جاءوا ضمن منظومة إسلامية دينية، ولم يتمردوا عليهم إلا فى أحوال قليلة حين كانت تتكشف لهم طبيعتهم الإستبدادية وأهدافهم السياسية البعيدة عن الدين.

وكان أهم ما يشغل المصريين القدماء شيئين: زراعتهم ودينهم، وقد انشغلوا بهذين الشيئين عن أحوال الحكام وأمور الحكم، وقد فطن الحكام إلى ذلك منذ القدم فحاولوا أن يمتلكوا زمام الزراعة من خلال تحكمهم فى النهر ويمتلكوا زمام الدين من خلال استخدامهم للكهنة ورجال الدين لكى يضفوا عليهم قدسية ترفعهم إلى مراتب الأنبياء أو الآلهة، وبهذا يتمكنون من السيطرة الكاملة على فكر ووجدان ومصير الشعب المصرى، ومن هنا نشأت الفرعونية الدينية والفرعونية السياسية، وأصبح الإستبداد هو السمة الغالبة على نظم الحكم فى مصر عبر العصور. ومازال هذا النهج ساريا فى العصور الحديثة مع تغير الأشخاص والأدوات والأساليب بما يتناسب مع لغة العصر.

وعلاقة المصرى بالدين علاقة حساسة وغامضة وأحيانا ملتبسة ومتناقضة، ولكنها علاقة مركزية ومحورية فى أغلب الحالات، وهى علاقة طوعية خرجت من رحم الحب

للإله والمودة له حيث رآه المصرى مصدرا للنماء والدفء والرخاء لذلك كان تصور الموت إيجابيا لديه فهو سيذهب إلى إله محبوب ويحيا لديه حياة طيبة، لذلك نرى القبور عامرة بالمقتنيات والنقوش والنصوص فكأن الميت ذاهب إلى زيارة محبوب فأخذ معه مالذ وطاب لكى ينعم فى رحاب محبوبه بكل هذا حين يبعث بين يديه. وهذه العلاقة الودودة المختارة المحبة تختلف عن علاقات أخرى بالإله فى بيئات مختلفة تتسم بقسوة المناخ وصعوبة ظروف الحياة حيث تميل العلاقة أكثر إلى الرهبة والفزع والخوف من الإله.

إذن فعلاقة المصريين بالإله علاقة فيها رجاء أكثر من الخوف. وفيها ترغيب أكثر من الترهيب، ولهذا نجد المناسبات والطقوس الدينية تتحول لدى المصريين إلى احتفاليات مبهجة ومبهرجة فى غالب الأحيان، فهم قد حولوا رؤية هلال رمضان إلى احتفالية عظيمة وكذلك ليالى رمضان كانت ومازالت لهم فيها طقوس احتفالية كثيرة تفوق كثير من الشعوب الأخرى، وكذلك يحتفلون بذكرى المولد النبوى وذكرى الإسراء والمعراج، وذكرى النصف من شعبان وذكرى عاشوراء، ولكل ذكرى من هذه الذكريات طقوس وطعوم خاصة تميزها. قد يقول قائل بأن هذه الإحتفاليات إرث فاطمى جاء إلى مصر مع الفاطميين، وهذا صحيح ولكن الطبيعة المصرية احتضنت هذا الإرث لأنه وافق تركيبتها النفسية، وأضافت عليه من قريحتها التى اشتهرت قبل الفاطميين بعصور طويلة بمحبتها للإحتفاليات الدينية. كما أن علاقة المصريين بالرموز الشخصية الدينية علاقة حميمية فهم يحبون الأنبياء حبا جارفا لأشخاصهم إضافة إلى حبهم لهم كرسل يبلغون عن الله ، ويحبون من تفرع من نسلهم ويقيمون لهم الموالد والإحتفاليات بشكل مبالغ فيه أحيانا، وهذا يأتى من العلاقة المحبة بالدين ورموزه من ناحية، كما يأتى من الطبيعة العاطفية للشخصية المصرية من ناحية أخرى.

وهذا الحب المتجاوز للخوف من الإله ترك فى الشخصية المصرية علاقة ملتبسة بالغيب، فالمصرى لديه ثقة هائلة بالغيب وتوقعات إيجابية منه تجعله فى حالة استرخاء وعدم استنفار أغلب وقته، فقد تعود أن يأتى النيل بالخير دون جهد شاق، وتعود على طبيعة هادئة ليس فيها برد قارس أو حر شديد أو زلازل أو براكين أو وحوش، وتعود

على قدر هائل من التماسك والتكافل الإجتماعى المرتبط بالمجتمع الزراعى من ناحية والمرتبط من ناحية أخرى بالتعاليم الدينية المتواترة والمستقرة فى البيئة المصرية. وهذه الحالة تركت فى الشخصية المصرية سمات الوداعة والطمأنينة العميقة والثقة فى الغيب وفى الآخر، وأحيانا تصل هذه الصفات إلى درجة السلبية والإعتمادية وانتظار الفرج من الغيب والعون من الله ثم من الآخر (كثيرا ما تسمع المصريين يقولون لشخص آخر: أنا هاعتمد على الله ثم عليك)

والمصرى يحاول أن يتجاوز الخوف فى عقيدته الدينية ويكتفى بالحب والتقديس، ويبدو هذا واضحا فى اختياره للآلهة التى يعبدها، فحين يخشى غياب الشمس التى تمده بالدفء والنماء فإنه يعبدها ويجعلها رمزا مشتركا فى أكثر طقوسه التعبدية، وحين يخاف من الأسود المختبئة له فى أحراش الدلتا الكثيفة (آنذاك) فإنه يجعل الأسد إلها بل إلهين أحدهما يحرس الشمس من الناحية الشرقية والآخر من الناحية الغربية، وحين يخشى الثعابين المنتشرة فى الأحراش والترع والقنوات فإنه أيضا يعبدها، والأغرب من ذلك حكاية الإله أنوبيس إله التحنيط، وقصته تتلخص فى أن الثعلب (ابن آوى) كان يتسلل إلى المقابر فيبنبشها ويسرق مافيها من أشياء كانت توضع مع الميت، وبدلا من أن يبحث المصريين عن وسيلة لمنع ابن آوى من التسلل لقبورهم اتجهوا لعبادته وتقديسه وجعلوه إلها للتحنيط وظهرت صوره على جدران المعابد يشارك فى عمليات التحنيط وتقديم الميت للإله. وقد حدث هذا أيضا مع الحكام حيث دأب المصريون على تأليه حكامهم وتقديسهم تحت تأثير الخوف منهم وبإيحاءات من الكهنة ورجال الدين.

والحقيقتان البارزتان فى الحضارة المصرية القديمة كانتا الدين والعمل، وكانا هما المقياسان المهمان للتقلبات الحضارية ففى فترات الصعود الحضارى يتعمق الدين فى النفوس ويسمو بالأرواح، وتعلو الهمة للعمل المبدع الدؤب المثمر، أما فى فترات الإنحدار فيتسطح الدين ويختزل، وتهبط الهمم ويصبح العمل شائها واطئا وكذلك النفوس. والدين والعمل كان كلاهما يترك آثاره فى العمارة والفن والزراعة والصناعة، فحيثما ترتقى العمارة ويشف الفن ويرق تتوقع تدينا أصيلا كامنا فى النفوس ومحركا لها،

فالعمارة والفن فى تلك العصور كانت تجسيدا لمعانى القداسة ومعانى السمو داخل النفوس. وحيثما تزدهر الزراعة والصناعة فهما دليلان على ارتفاع الهمة للعمل ورسوخ عقيدة الإتقان فى النفوس الوثّابة العزيزة. والمصرى القديم كان كثيرا ما ينشغل بالدين والعمل عن مشكلارت الحكم والحكام، ولكى يريح نفسه أكثر فقد اتجه (بإيعاز من الكهنة ورجال الدين) إلى تأليه حكامه حتى يثق فى كل ما يفعلوه حين يعتقد فى سموهم وعصمتهم من الخطأ وحين يجد فى طاعتهم سبيلا إلى الحياة السعيدة فى عالم الخلود بعد الموت.

ويبدو أن المصريين لديهم رغبة مؤكدة فى تجسيد المقدس وقد ظهرت هذه الرغبة فى اتخاذهم آلهة من المخلوقات التى تعيش بينهم سواء كانوا بشرا (حكاما آلهة) أو حيوانات أو طيور، وقد كانت تضيع فى كثير من الأحيان الحدود الفاصلة بين الإله الحقيقى غير المرئى وبين الآلهة المجسدة، وقد ظهر هذا الشغف بالتجسيد لدى أصحاب موسى حين تركهم وذهب لميقات ربه وحين عاد وجد السامرى قد صنع لهم عجلا من ذهب ليعبدوه، وقد فعلوا ذلك على الرغم من مصاحبتهم لموسى عليه السلام وقرب عهدهم برؤية معجزة الثعبان الذى التهم سحرهم ومعجزة انشقاق البحر وعبورهم إياه ثم غرق فرعون. وقد يعزو بعض علماء النفس هذا الأمر إلى نوع من التفكير العيانى (التجسيدى المباشر) لدى من يفتقدون القدرة على التجريد (التفكير الإستنباطى الرمزى) ولكن هذا التفسير لا يصمد فى حالة المصريين القدماء حيث تعكس آثارهم قدرة هائلة على التجريد والرمزية. ويبدو أن هذه الرغبة فى تجسيد الإله أو من ينوب عنه أو من له صلة به هى رغبة ظهرت فى كثير من المجتمعات البشرية، تلك الرغبة التى روجت صناعة الأصنام وعبادتها، وروجت لتقديس بعض الحيوانات أو البشر وعبادتهم أو تعظيمهم.

وفى تدين المصريين معنى الميزان والحساب، وهو معنى يستقر فى الضمير المصرى فيجعله رقيبا على نفسه محاسبا لها حتى وإن غابت الرقابة الخارجية، وهو شئ من إدراك قانون العدل الكونى يجعله يقبل على أفعال ويخشى غيرها بناءا على اعتبارات العدل الأخروى والجزاء المؤكد فى عالم الخلود. وهذا المعنى حين استقر فى وجدان المصرى

القديم انعكس فى فنه فى صورة دقة متناهية وهندسة دقيقة تراعى التناسق والتوازن والإنضباط، وكلها معان تدل على وجود ضمير رقيب حسيب لا يسمح بالخطأ ولو فى أدق صوره، ضمير يراعى القانون فى ألطف صوره وتجلياته، وهذا الإنضباط وهذه المراعاة الدقيقة للقانون تعطى للفن المصرى دقته وروعته من ناحية ولكنها ربما تعطيه ما يحسبه البعض سكونا أو جمودا أو توقفا، وهو أبعد ما يكون عن تلك المعانى السلبية، والأكثر رجحانا أنه تعلق القلب بالقانون واحترامه الشديد لدقة الوقفة والحركة، وهذا شئ نلمحه فى عمارة الأهرام الراسخة الصامتة وفى المسلات التى تقوم على قاعدة صغيرة وتلملم أطرافها فى هدوء وسلاسة متطلعة نحو السماء (وكذا تفعل الأهرامات والمنارات والقباب والمآذن)، تلك الحركة الصامتة نحو المعالى ونحو الرقى ونحو الفضاء الروحى الهادئ الهادر فى آن. ففى الأجواء المفعمة بالقداسة والجلال لا يصح الصخب ولا تجوز العشوائية ولا يصح الإضطراب.

وارتفاع المسلات الهائل، وارتفاع أعمدة المعابد (وخاصة معبد الكرنك فى الأقصر) وارتفاع الأهرامات الشاهق، كل ذلك يعطى ويؤكد معانى السمو والأشواق نحو السامى، والترفع عن سفاسف الأمور والإرتفاع فوق علائق الحياة الزائفة، والتطلع نحو المعالى، والتعلق بالخلود، حقا لقد كان المصرى القديم يسعى نحو الله (وإن اختلفت تصوراته عنه فى مراحل مختلفة من تاريخه) ويسعى نحو السمو ويسعى نحو الخلود، وهذا ما جعل آثاره تصمد لعوارض الزمن وتتسم بالإتقان والمتانة والجمال.

وقد استمرت هذه المعانى المفعمة بالقداسة فى الحقبتين المسيحية والإسلامية حيث بناء الكنائس والمساجد بارتفاعات تتجاوز ضرورات استخدام المكان وحيث المنارات والمآذن والقباب تمتد شامخة نحو السماء، وحيث الأقبية والإيوانات تحنو فوق الركع السجود، وحيث المحراب يغوص فى بطن الجدار ليحتضن فى حب ومودة كل من يقصد القبلة، ووحدات الأرابيسك (العاشق والمعشوق) فى الفن الإسلامى تعكس القانون وتعكس التماسك بين الوحدات وتعكس الدقة والنظام. وهكذا نجد هذا التواصل المبدع والمحب بين معانى القداسة فى داخل النفس وبين العمارة والفن فى خارجها بحيث يغذى

كل منهما الآخر ويرعاه ويدعمه.

والسكينة كانت سمة للمصريين إلى عهد قريب، وكانت أكبر دعائمها ذلك الإعتقاد الدينى الهادئ والعميق، ذلك التسليم المطلق لمسبب الأسباب، وذلك التعالى الواثق فوق مكدرات الحياة ونيران الآلام والأحزان والمخاوف، والسكينة النابعة من الإيمان ليست مرادفة للسكون السلبى أو للجمود، وإنما هى حالة من الرضا عن الله والرضا عن النفس والرضا بالرزق، حالة من السلام الداخلى والتلسليم للقانون الكونى ولمسبب الأسباب، حالة من التوافق مع الكل الشامل، ومع الفضاء الكونى الأرحب، حالة من اللاخوف واللاحزن (لا خوف عليهم ولاهم يحزنزون)، حالة من العودة الراضية المرضية إلى أصل الوجود (يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى). السكينة هى إدراك القلب لمشهد جديد فيه من الرحابة ما تصغر أمامه كل المشاغل والمشاكل والتفاهات الدنيوية، مشهد يفيض بالسعادات والهناءات والمفرحات التى لا تتعكر ولا تتكدر بصروف الزمن أو غدر البشر وظلمهم، حالة من الوجود المتجاوز للإحتياجات البيولوجية الأدنى. والناتج النهائى لهذه السكينة فى الشخصية المصرية كانت حالة من الدعة واللطافة والرفق والصبر الجميل، تلك الصفات التى اتصف بها المصرى إلى عهد قريب، قبل أن تبتلعه مغريات الحياة الإستهلاكية التى خبرها فى النموذج الخليجى والنموذج الأمريكى وفى قيم العولمة الطامعة الظالمة التى تسربت إلى طبقات نفسه عبر الهجرة والفضائيات والإنترنت. لقد انهزمت القناعة والرضا أمام ضغوط الرفاهة وإغراءات الإستهلاك، والشعور بالدونية إزاء الكفيل الخليجى أو السيد الأمريكى، أو الحاكم الأبدى المستبد. لقد ضاعت من المصرى سكينة إيمانه (حتى المتدينين منهم)، وقد تجلى هذا فى فقدانه للوداعة والرفق واللين واللطافة، ونزوعه فى السنوات الأخيرة نحو الفظاظة والخشونة والغلظة والعدوان. وقد انعكس هذا فى فن هابط ردئ وفى عشوائية قبيحة فى كل مكان، وفى قذارة تملأ الشوارع والميادين فى المدن والقرى وفى سحابة سوداء تنم عن فشل مزمن فى مقاومة المشكلات حتى تحولت إلى أزمات، والفشل فى مقاومة الأزمات حتى تحولت إلى كوارث متمثلة فى غرق السفن

بآلاف الركاب واصطدام القطارات أو احتراقها بآلاف المصريين البسطاء الفقراء.

ورؤية المصرى لأى أمر فى حياته يغلب عليها الدين حتى ولو كان غير متدين، وهناك نكتة مشهورة تقول بأن أحد المصريين سافر إلى روسيا فى حقبة الإشتراكية أيام جمال عبدالناصر وكانت للشيوعية والإلحاد وقتها بريقا يجذب بعض المثقفين الحالمين بالمساواة والإشتراكية، ولما عاد هذا المصرى جلس يقول متفاخرا لصديقه: «أنا ألحدت»..... فرد عليه صديقه مستنكرا: «ياعم قول كلام غير ده».... فرد عليه محاولا إقناعه: «والله العظيم أنا ألحدت»..... فإلى هذا الحد نجد أن فكرة الدين تظل كامنة فى الأعماق حتى لدى هؤلاء الذين يدّعون غيرها، وهذا يبرز أيضا فى مواقف يفترض أنها مغايرة للدين فمثلا المطربات والراقصات كثيرا ما ترد فى كلماتهم ألفاظا دينية فيها تعظيم للإله وتعظيم للرسول على الرغم من أن الموقف يبدو متناقضا، ولكنها طبقات الدين المتراكمة بشكل تلقائى داخل النفس مثلما تتراكم طبقات الطمى التى يحملها النيل إلى أرض مصر.

وهذا يجعل الأمر يبدو ملتبسا فى أذهان بعض الناس خاصة من تربوا على الفكر الغربى الذى يفصل بين نشاطات الدين ونشاطات الدنيا، وهم يحاولون أن يضبطوا إيقاع الفكر المصرى على هذه النغمة التى تبدو عالمية فى الوقت الحالى، ولكن هذا يصعب كثيرا مع تركيبة الشخصية المصرية المشبعة بالفكرة الدينية ولا تجد مبررا لهجرها أو العمل خارج إطارها خاصة وأن هذه الفكرة لها وجود إيجابى ووجود محرك لدوافع الشخصية المصرية، وهذا عكس الصورة السلبية للفكرة الدينية فى المجتمعات الأخرى والتى ارتبطت بالقهر والطغيان والترهيب أكثر مما ارتبطت بالحب والقداسة، ومن هنا تبدو الفكرة العلمانية غريبة على الذهنية المصرية التى ترى الله فى كل شئ وتذكره حتى أثناء غنائها أو رقصها، وتتبنى المدخل الدينى فى النواحى الإيمانية ولا تكتفى بذلك بل تسحبه على كل شئ، والسبب الأساسى وراء ذلك كما قلنا هو العلاقة الإيجابية المحبة بالدين ورموزه والتى ترسخت وتأكدت فى كل المراحل التاريخية، فلم يكن للمصرى قصة صراع مع الدين أو مع المسجد أو الكنيسة بل هى فى الأغلب قصة حب جارف ملأ عليه

قلبه وعقله، وأصبح شديد الإرتباط به رغبة ووداً، وربما يفسر هذا كثرة المعابد والآثار الدينية فى مصر القديمة، وكثرة الأديرة والكنائس من الحقبة القبطية، وكثرة المساجد والزوايا والكتاتيب من الحقبة الإسلامية، وكثرة المقامات والأضرحة لآل البيت وللصالحين وأحيانا لأشخاص مجهولين يظن بهم الصلاح (مجرد ظن) ومع هذا تقام لهم الأضرحة والموالد. وهذه الأضرحة والمقامات والموالد على الرغم من الموقف الدينى (الإسلامى خاصة) الرافض لها إلا أن الطبيعة المصرية العاطفية المحبة تغلب على كثير من الناس فيهتمون بها ويجدون لها تبريرات تريحهم، فالدين لديهم ليس تشريعات محددة وفقط، وإنما هو علاقة عاطفية فى أغلبها لاتخضع لمنطق العقل أو نصوص الدين بقدر ما تخضع لمشاعر القلب وأحاسيسه التلقائية.

يقول الدكتور نبيل راغب: «كذلك لعب الدين المعتدل دورا حيويا فى إشاعة البشر والتفاؤل فى حياة المصريين، لأنه أمدهم باليقين من خلال إيمانهم بالخلود والحياة الآخرة والحساب والجنة التى تعوض الفقير أو المظلوم عما قد يكون لاقاه من معاناة فى حياته الدنيا. فقد جنبته عقيدته الدينية العميقة الخوف من المجهول، والرعب من العدم، والشك فى المصير، والحيرة من الموت، حتى موت الأحياء فى نظره كان انتقالا إلى حياة ثانية زاخرة بالسعادة والخلود. وكلها عقائد ومفاهيم سرت بالبشر والبهجة والتفاؤل والمرح فى حياة المصريين» (نبيل راغب ١٩٩٢، الشخصية المصرية بين الحزن والمرح، دار الثقافة)

وقد تميزت الحياة المصرية وإلى وقت قريب بقبول التعددية الدينية، فكان اليهود والنصارى والمسلمون يعيشون جنبا إلى جنب ويكونون نسيجا مجتمعيا متماسكا ومتعايشا، وكان للحكم الإسلامى دور كبير فى ترسيخ هذه التعددية فالإسلام بتعاليمه السمحة وصفة العالمية فيه ورفضه لكل أشكال القهر الإعتقادى أو التمييز العنصرى على أساس الجنس أو اللون أو الدين، قد رسخ لمبدأ حرية العقيدة والمساواة وحقوق المواطنة للجميع على اختلاف انتماءاتهم وتنوعاتهم فكان الولاة والخلفاء والأمراء فى الدولة الإسلامية يتخذون من اليهود والنصارى وزراء ومستشارين، وكان اليهود إلى عهد

قريب يملكون مشروعات اقتصادية كانت هى الأضخم فى مصر فى ذلك الوقت مثل «عمر افندى» و «صيدناوى» و «عدس» و «ريفولى» وغيرها من المحلات والمشروعات التجارية الكبيرة، وكانوا يملكون بل ويسيطرون على تجارة الأقمشة فى حى الأزهر ذو السمت الإسلامى، وكان النصارى وما يزالون يملكون المشاريع الإقتصادية الضخمة التى يعمل فيها مسلمون ومسيحيون على السواء وبلا تمييز.

ولكن للأسف الشديد حدث بعض التحول فى هذه الحياة التعددية وكان من أسباب هذا التحول:

- الصراع العربى الإسرائيلى وما تركه من شكوك بين اليهودى المصرى وغيره من النصارى والمسلمين
- الثورة وفكرها الإختزالى البعيد عن الروح السمحة للإسلام، وضيقها بفكرة التعددية على كل المستويات
- الفكر الدينى الخليجى القادم إلى مصر مع المصريين العائدين من هناك بعد الطفرة النفطية والقائم على التصور الإلغائى أو التسفيهى أو التحقيرى أو الإستبعادى للآخر المختلف عقائديا
- المشاعر السلبية لدى بعض أقباط المهجر، وعملهم على استثارة النزعات الطائفية لدى أقباط الداخل ومحاولة الإستقواء بالخارج المسيحى فى ظروف ضعفت وتضعضعت فيها الأنظمة العربية وأصبحت قابلة للضغوط الخارجية أو مستسلمة لها توقيا لانتقام محتمل أو سعيا لمصالح تتعلق بالبقاء فى الحكم أو توريثه للأبناء
- لعبة الأمن والسياسة والدين، حيث ضعفت الأحزاب السياسية، وأصبح الأمن مخولا بحل القضايا السياسية والأمنية، وحل المشكلات القائمة بين الطوائف والإتجاهات المختلفة، وقد لجأ الأمن إلى اتباع أساليب قمعية أو أساليب غير سياسية، وأحيانا أساليب ملتوية تتسم بسياسة لى الذراع أو شد الأذن أو محاولات التجنيد أو الترويض أو ضرب تيار بآخر، كل ذلك خلف انشقاقات

وعداوات ستحتاج لسنوات طويلة حتى تلتئم.

وفى السنوات الأخيرة حدث مزيد من التحول فى هذه النظرة وتلك العلاقة بالدين، وكان هذا التحول قادم من خارج مصر حمله أبناؤها الذين سافروا إما إلى الغرب المسيحى العلمانى أو إلى الشرق الإسلامى السلفى. فالذين عادوا من الغرب المسيحى العلمانى يحاولون فصل الدين عن الحياة، ويحاولون إعادة الهوية المصرية الفرعونية، ويحاولون من وقت لآخر صبغ الحياة المصرية بالصبغة الغربية فى الدين والإجتماع والثقافة، ولكنهم يواجهون بقيم دينية واجتماعية وثقافية راسخة تجعل من هذا التغيير أمرا صعبا، كما أن فئة من هؤلاء يعاونهم بعض المقيمين فى بلا د المهجر يثيرون من وقت لآخر نزعات طائفية محكومة برؤية غربية عنصرية تختلف كثيرا عن الرؤية المصرية المسالمة والمستقرة عبر العصور. والذين عادوا من الشرق الإسلامى السلفى يحاولون صبغ الحياة الدينية المصرية بالصبغة السلفية مع التقليل من أهمية اختلاف الزمان والمكان والظروف، والتركيز على الحدود الشرعية أكثر من التركيز على جوهر الدين وروحانياته، واستدعاء منهج حياة السلف بحذافيره متجاوزين – كما قلنا – أبعاد الزمان والمكان والظروف والأحوال، وداعين إلى منهج استقطابى أحادى مستبعدا للآخر أو مستهينا بشأنه، ولكنهم يواجهون باختلاف الطبيعة المصرية عن الطبيعة الصحراوية القديمة والطبيعة النفطية الحديثة، ويواجهون باختلاف التركيبة المجتمعية المصرية التى قامت منذ فجر التاريخ على التعددية الدينية وقبول الآخر كمواطن شريك والتعايش معه.

وهذان التياران القادمان من الغرب ومن الشرق يمثلان فى الوقت الحالى بذورا لنزاعات طائفية يحاول المجتمع المصرى تجاوزها والتغلب عليها ليكمل مسيرته التعددية التعايشية المتسامحة كما كان، ولكن يعوق قدرة الشعب المصرى على هذا بعض الظروف الداخلية والخارجية التى تثير العصبيات والطائفيات خاصة فى نفوس الشباب المحبط سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وتعليميا، فتؤدى هذه الإحباطات وما يصاحبها من تسخين داخلى (غير مسئول وغير مقدر للعواقب) وتسخين خارجى (طامع فى تغيير خريطة المنطقة بما يخدم أهدافه) إلى بعض الإحتكاكات والصدامات الطائفية الغريبة على المجتمع

المصرى الذى تميز عبر العصور – كما ذكرنا – بتعدديته وتسامحه وتماسك نسيجه الوطنى.

ومن الواضح لأى مراقب متأمل أن حالة من الإنتشار الإسلامى تحدث فى المجتمع المصرى على الرغم من مشاكله المزمنة والمروعة، وقد يكون هذا رد فعل للقهر السياسى فى الداخل أو الإذلال الأمريكى الإسرائيلى من الخارج أو تمسكا بالهوية الدينية (بحثا عن تماسك الشخصية) أمام تهديدات ومطارق العولمة القادمة عبر شاشات التليفزيون والإنترنت. ذلك الإنتشار الكمى الذى تسلل إلى كل الطبقات الإجتماعية ووصل إلى النخب التى كانت تعتبر التدين أقرب إلى الممارسات الشعبية،فأصبحنا نرى الحجاب فى كل الأماكن والطبقات، حتى أولئك الذين يحاربون الحجاب أو المظاهر الإسلامية عموما (لأسباب وظيفية أو انتماءات حزبية) نجد أبناءهم وبناتهم وزوجاتهم وقد ظهرت عليه مظاهر التدين. إذن نحن أمام ظاهرة تدين تتمدد يوما بعد يوم فى المجتمع المصرى وتتجاوب مع تمدد إسلامى عالمى (الدين الوحيد الذى يزداد عدد أتباعه فى الوقت الحالى فى أوروبا وأمريكا هو الإسلام)، ولهذا نجد الرافضين لهذا التمدد والكارهين له يزدادون حدة ونشاطا فى الهجوم على الإسلام ورموزه بحق أو بغير حق.

وعلى الرغم من هذا الإنتشار الكمى إلا أن نوعية التدين تثير تساؤلات كثيرة، فكثير منها مازال يندرج تحت تدين رد الفعل أو التدين المعرفى (الذى يقتصر على النواحى المعرفية فقط) أو التدين الوجدانى (العاطفى) أو التدين الهروبى الإنسحابى أو التدين السلبى الإعتمادى أو التدين النفعى. وقلما نجد نوع التدين الأصيل الذى يتغلغل فى دوائر المعرفة والعاطفة والسلوك، والذى يجمع شتات صاحبه على التوحيد المطلق الذى يعطى سر الإدراك الكلى الشامل لأبعاد الوجود دون اختزال أو استبعاد، والذى يجعل من صاحبه منظومة كونية رائعة فتجده يألف ويؤلف، فيأمن جاره بوائقه، وتجده راضيا مرضيا، وديعا لطيفا، محبا بارا، منتجا مبدعا متقنا، شديد على الكفار والظالمين ورحيم بالمؤمنين، يسخر نفسه لخدمة الدين ولا يتاجر بدينه أو يستخدمه لأغراض دنياه الزائلة، لا تلمح فيه ادعاءا أو مبالغة بل تراه بسيطا كريما عفيفا هادئا مطمئنا محبا ودودا.

إذن فالتسطيح والإختزال والإدعاء والصخب والعشوائية هى سمات منتشرة فى

التدين المعاصر فى المجتمع المصرى، وهذا النوع من التدين يفتن كثير من الناس لذا تجدهم يسخرون من أو يتشككون فى قطاعات كبيرة من المتدينين على الرغم من محبتهم للدين ورموزه. وعلى الرغم من هذه السلبيات إلا أن المد الدينى تتسع مساحته ويكسب أرضا جديدة كل يوم، وربما يفيده انهيار الأحزاب والمؤسسات الرسمية وشبه الرسمية وفشلها فى جمع الناس حول أفكارها ومناهجها فضلا عن تفشى الفساد فيها حتى أصبح الفساد هو السمة السائدة للمجتمع فى هذه الأيام، وهذا مما يدفع مزيد من الناس للدخول تحت مظلة التدين بحثا عن الخلاص.

كما أن من مشكلات التدين المصرى الحالى إعلاء قيمة اللفظ على حساب المعنى، والإنشقاق بين ما يبديه الشخص من مظهر دينى وبين ما يضمره من أفكار وأحاسيس، وحالة الغربة والإغتراب عن النفس والمجتمع، وإعاقة النمو النفسى والإجتماعى، والبعد عن الإدراك الشامل والمتكامل لأبعاد الوجود، وتضخيم الذات وتعاليها على بقية من حولها، أو تحقيرها وتسليمها القياد لكل من يسوقها.

ومن المظاهر المثيرة للتساؤلات فى التدين المصرى المعاصر محاولات التجزئ والتفكير العيانى المختزل والتعلق بأشياء بعينها على أنها مظاهر للإعجاز الموجب للتسليم بصدق هذا الدين وجدارته بالإتباع من أهله ومن غير أهله، وهذا مما يبعد الجميع عن الإدراك الكلى الشامل لهذا الدين والذى هو سر عظمته وخلوده، أما التفسيرات المجتزئة والمتعجلة، ولوى أعناق النصوص لتحقق ما يسمى بالإعجاز العلمى فإنه قد يبهر الناس مؤقتا ولكنه لا يصنع إيمانا حقيقيا (على الرغم من ادعاءات دخول الأجانب فى الإسلام بعد سماعهم لمحاضرات الإعجاز العلمى)، فالدين لا تبدو روعته فى تقطيعه وتجزيئه، ولا يأخذ مصداقيته من موافقته لبعض المكتشفات العلمية المتغيرة بالضرورة، والدين احتياج فطرى للبشر لذلك لا يستوجب التسول من أجل إقناعهم بجدواه وأحقيته وصدقه، فالدعوة الكريمة الصادقة الشامخة خير من اللهث خلف إبهار علمى أو تقنى مؤقت.

ومن التجزئ من يسقط أبعاد الزمان والمكان ويتشبث باجتهادات الأقدمين من العلماء ويهدر قيمة المحدثين، ويمشى ورأسه ملتفتا إلى الخلف طول الوقت فيسقط منه

الحاضر والمستقبل لكى يعيش فى الماضى ويتغنى به دون فعل حقيقى مبدع وخلاّق فى حل مشكلات الحاضر.

ومنهم من يئد المرأة بإخفائها مطلقا وإيداعها جنبات البيوت المظلمة ظنا منه أن فى ذلك درءا للفتنة وإبعادا لهذا الكائن الأنثوى المسكون بالغواية والفتنة، ونسى هؤلاء أو تناسوا تاريخا حافلا للمرأة المسلمة فى ميادين الجهاد المدنى والعسكرى، واحترام صاحب الرسالة لها ولدورها.

وهناك من يعظم الجانب السياسى للتدين على الجانب الدعوى والجانب الروحى فيبدو الدين للناس فجا متحديا متصارعا على كراسى الحكم ومغالبا على سدة السلطة والثروة والقوة، وهذا أيضا ضار بالدين والتدين، ويجعل قطاعات من الناس فى حالة تصارع واشتباك مع الدين ورموزه، فعلى الرغم من أن الإسلام دين للحياة يشمل الدنيا والآخرة وأنه دين شامل ومتكامل إلا أن الإصرار على الزج به فى المعارك السياسية بدون مبرر يجعله خصما سياسيا وليس دواءا روحيا للجميع علياختلاف انتماءاتهم وتوجهاتهم السياسية أو الثقافية.

وهكذا نرى التدين فى الشخصية المصرية بكل جوانبه فاعلا ومؤثرا وحاضرا فى النفوس وفى الحياة امتدادا لميراث هائل من طبقات الدين والتدين لا ينكره إلا جاهل ولا يخشاه إلا عاجز.

***

المجتمع الأبوى

ذلك هو المجتمع الذى يملك فيه الأب (أو الكبير بشكل عام) المال والسلطة والقرار والحكمة والمعرفة، فى حين يكون الأبناء (أو التابعين بشكل عام) تابعين متلقين لا يتحركون ولا يفعلون شيئا إلا من خلال الأب الذى يعرف كل شئ ويفكر بالنيابة عنهم فهو أكثر منهم خبرة ومعرفة بالحياة وأدرى بما يصلحهم، وهم لذلك يسلمون له إر ادتهم. وفى هذا المجتمع نرى إعلاءا لقيم الطاعة والإتباع والتسليم للكبار، ونرى خوفا من الإستقلال والإرادة الشخصية والإبداع والتجديد، فما هو قائم أفضل بكثير مما يمكن أن يكون (لأنه ينتمى إلى جيل الكبار)، وليس فى الإمكان أبدع مما كان، وما فعله الأولون هو الحكمة بعينها التى يجب السير على منوالها، أما المحدثون فقد لوثتهم الأفكار والمذاهب فلا يوثق فى رأيهم ولا يطمأن إلى فعلهم.

وفى المجتمع الأبوى يصبح الزمن الماضى هو أفضل الأزمنة وتسود فكرة الزمن الجميل، ويقدس كل قديم ويحقر كل حديث، ويصبح التراث بما يحويه من ثمين وغث قانونا يحكم الحياة المعاصرة ويسقط عامل الزمان وعامل المكان وعامل الظروف المتغيرة، وتصبح كل الكتب القديمة مقدسة وتفسيراتها أيضا مقدسة والممارسات القائمة عليها مقدسة، والأشخاص المتصلين بها مقدسون، وهنا يجد العقل نفسه يتحرك وسط حقل ملغم بالمقدسات فيفضل الوقوف بديلا عن مخاطر الحركة المحاطة بآلاف المحاذير والخطوط الحمراء.

وللمجتمع الأبوى جذور عميقة فى الحياة المصرية فقد رسخ له الكهنة فى مصر القديمة ليضمنوا ولاء الناس للفرعون ولهم. ثم توالت الرسالات السماوية اليهودية والنصرانية والإسلامية والتى تحمل فى جوهرها فكرة التوحيد لله والعبودية له وحده دون سواه والتحرر من أى عبودية للبشر وتحرير العقل من أغلاله، إلا أن أهواء ومصالح رجال الدين المتحالفين مع السلطة رسخت فكرة القداسة والأبوية والطاعة المطلقة

لبعض البشر كآباء أو كهنة أو حكام بأمر الله فترسخت مبادئ المجتمع الأبوى الذى يلغى الأفكار والعقول والإبداع والتطور لحساب الطاعة والإنقياد والتسليم لبشر يملك ويحكم ويفكر ويخطط بوكالة وتفويض من الله على حد زعمه أو زعم من يقدسونه. وقد تأخذ فكرة المجتمع الأبوى معنى الإحترام والتبجيل للكبار عموما وللآباء على وجه الخصوص (وهم بالفعل جديرين بالإحترام جزاء ماقدموه لأبنائهم)، ولكننا هنا نتكلم على مستوى يقوم على تقديس الكبير والقديم وتحقير الصغير والحديث، وهذا يجعل الحياة تتجمد أو تتقهقر، ويجعل الناس يهاجرون دوما إلى الماضى وينسون الحاضر والمستقبل، ويجعل العبودية لغير الله، ويرسخ لفكرة الإستبداد والطغيان سواءا من الحكام أو من رجال الدين، ويصم الحرية والإستقلال والمساواة، وكلها أمراض استشرت فى المجتمع المصرى على مدار التاريخ وأفرزت الكثير من سلبياته وأفقدته مميزات أتاحها الله له من رزق وفير وطبيعة حية معطاءة وجميلة وهادئة، ونهر من أجمل وأروع أنهار الدنيا وسماءا صافية وعقولا ذكية.

وساعد على ترسيخ المجتمع الأبوى وجود النهر الذى شكّل ما يسميه علماء الإجتماع بالمجتمع النهرى (أو المائى أو الهيدروليكى)، ذلك المجتمع الذى يحتاج إلى سلطة مركزية تدير النهر وتتحكم فى مياهه إذا فاضت أو غاضت، وهذا الأمر لا يستطيع الأفراد وحدهم القيام به نظرا لضخامته، وهذا أعطى للسلطة المركزية قوة وسلطانا يختلف بكثير عما يحدث فى المجتمعات الرعوية التى تعيش على ماء المطر وما ينبت من عشب، فهذا لا يستدعى قوة مركزية منظمة، فكل قبيلة تعيش فى منطقة وتنتظر المطر من السماء ولا توجد ضرورة لأنظمة مركزية كبيرة باستثناء سلطة شيخ القبيلة الذى ينظم علاقات أفرادها.

وفكرة المجتمع الأبوى على المستوى السياسى والإجتماعى ترسخ لحكم الفرد لأنها تعطى الحاكم كل حقوق ومميزات الأب فى حين تضع الشعب كله فى موضع الأبناء القصّر الذين يحتاجون لرعاية الحاكم ووصايته وتوجيهه، وهم بدونه لايعلمون شيئا ولا يهتدون، ولولا وجوده وحكمته وتدبيره لضاعوا وأضاعوا كل شئ، وهذا يدعم فكرة

أبدية الحاكم – كما هى أبدية الأب – فالحاكم كلما استمر فى الحكم زادت قيمته وقدسيته وأصبحت حياة الرعية أمرا مفزعا بدونه، فهم تعودوا على السير ورائه واتباع خطواته والعمل برؤيته والإهتداء بحكمته. وإذا حدث ومات الحاكم فإن الرعية يشعرون باليتم الشديد، ويخرجون خلفه بالملايين يبكون

(كما حدث فى جنازة عبدالناصر مما أذهل العالم الغربى الذى لم يألف هذه العلاقة الأبوية بين الشعب وحاكمه)، ثم إذا أفاقوا بحثوا عن حاكم (أب) آخر يتعلقون به إلى آخر العمر. وفى علم النفس تسمى هذه العلاقة «علاقة والد بطفل»، وهى علاقة مشحونة بالوصاية والتحكم والنقد أو الرعاية من جانب الوالد من ناحية، ومشحونة بالسلبية والإعتمادية ومشاعر متناقضة بين التعلق والرفض من جانب الطفل من ناحية أخرى. وهذا الوضع يختلف كثيرا عن العلاقة المقابلة فى الدول الديموقراطية حيث تكون علاقة «ناضج بناضج»، فكلا من الحاكم والمحكوم فى حالة نضج وتعاون متبادل وتفاهم واضح وشفّاف خال من الوصاية أو التحكم أو الإستخفاف.

***

العلاقة بالسلطة

كان نجيب محفوظ شغوفا بسيرة الفتوات فى رواياته، وربما كان ذلك محاولة ذكية منه لإظهار علاقة المصريين بالسلطة (دون مشكلات) والتى تشبه تماما علاقة أهل الحاره بالفتوة، فهم يكرهونه ويرفضونه، ومع ذلك يداهنونه وينافقونه ويرتعدون خوفا فى وجوده، ويشكرونه على أنه سمح لهم بالعيش فى الحارة تحت حمايته، فإذا خلوا إلى أنفسهم سخروا منه وصبوا عليه الدعوات واللعنات. ولكن ربما فى مرحلة من المراحل يدخلون فى حالة التوحد مع المعتدى، فيرونه محقا فيما يفعل، وربما يضفون عليه هالات قداسة فينسبونه إلى الأشراف أو يدّعون اتصاله بنسل النبى ﷺ وهذا يريحهم ويرفع عنهم مسئولية مواجهته.

ولم يكن الفتوة يسقط بإرادة جماعية من أهل الحارة، وإنما يسقط بظهور فتوة آخر ينازعه السلطة ويبارزه بالنبوت فيهزمه، ويبايع أهل الحارة الفتوة الجديد ويصبون اللعنات على القديم، ويعود إليهم وعيهم بظلمه ومساوئه، ثم يبدأون رحلة استذلال وتملق جديدة مع الفتوة الجديد ويضفون عليه من صفات القوة والعظمة ما يجعل ذاته تتضخم إلى أن يقول بلسان الحال أو المقال: «أنا ربكم الأعلى»..... «ما أريكم إلا ما أرى».... «لا أعلم لكم من إله غيرى». ويبدو أن هذا سلوكا نمطيا فى حياة المصريين لأنه يتكرر فى كل مراحل تاريخهم تقريبا، وهذه العلاقة المتكررة بين الفتوة (السيد – المقدس) وأهل الحارة (العبيد – الرعايا) تعمل على تشويه الطرفين، فهى من ناحية تنفخ فى ذات الفتوة فيتضخم ويتجاوز كل الحدود فى الإستبداد والسيطرة فيصل إلى حالة التأله و ومن ناحية أخرى تؤدى هذه العلاقة إلى سحق ذات أهل الحارة وشحنهم بالمزيد من أخلاق العبيد، ويبدو أن هذا هو لب مشكلة الشخصية المصرية، فالمصرى يدرك أنه كشخص يمتلك طاقات عقلية وابتكارية عالية، ولكنه مع هذا يفتقد الإحساس بالمواطنة والسيادة والكرامة، فيبدأ فى تسخير ملكاته لخدمة السيد المقدس فيتحول إلى «فهلوى» يلبى

طلبات السيد ويحاول إرضاءه وإسعاده، وفى نفس الوقت يداهنه ويجاريه وربما يخدعه لكى يتجنب غضبه وقسوته، وهذه النقطة هى بداية مولد الشخصية البهلوانية أو شخصية الفهلوى، واستمرار هذه العلاقة يغذى صفات الفهلوة لدى الشخصية المصرية، تلك الصفات التى يستفيد منها الفتوة (السيد) ويحتقر صاحبها فى ذات الوقت، ويمجدها أحيانا بقوله: «إن المصريين هم أفضل الشعوب، وأنهم أصحاب حضارة سبعة آلاف سنة»، وهذا يفعله المستبد لكى يخدع المصرى بالتغنى بالماضى وبالحضارة وبالريادة حتى ينشغل بما كان عما يجب أن يكون. وهكذا يستمر الأمر ويسوء فيصدق المصرى الفهلوى هذه الدعاية فيزداد فهلوة ويتفنن أكثر فى الألعاب البهلوانية، ويهتم بالشكل دون الجوهر، المهم أن يرضى سيده (على الأقل فى الظاهر)، فهو يشعر أنه مجبر على إرضائه وإمتاعه ومؤانسته إن أمكن، وهو كأى مستعبد لا ينتظر سوى نظرة رضا أو كلمة استحسان من السيد. وربما نفهم بناء الأهرامات فى ذلك السياق فعلى الرغم من عظمتها الهندسية التى تعبر عن عبقرية الشخصية المصرية وإبداعها إلا أنها من ناحية أخرى تكشف عن تلك العلاقة الإستبدادية المستغلة بين الفرعون وشعبه والتى تأخذ أبعادا هى مزيج من الرهبة والقداسة والخضوع والإستذلال لشعب يقضى عشرين سنة ليبنى قبرا للفرعون المقدس، ويتكرر ذلك مع كل فرعون بصورة أو بأخرى.

يقول جمال حمدان فى كتابه «شخصية مصر»: «سلبية المواطن الفرد إزاء الحكم جعلت الحكومة هى كل شئ فى مصر والمواطن نفسه لا شئ، فكانت مصر دائما هى حاكمها. وهذا أس وأصل الطغيان الفرعونى والإستبداد الشرقى المزمن حتى اليوم أكثر مما هو نتيجة له. فهو بفرط الإعتدال مواطن سلس ذلول، بل رعية ومطية لينة، لا يحسن إلا الرضوخ للحكم والحاكم، ولا يجيد سوى نفاق السلطة والعبودية للقوة، وما أسهل حينئذ أن يتحول من مواطن ذلول إلى عبد ذليل».

وهناك من يقول بأن النيل (أو المجتمع النهرى) هو أحد العوامل الكامنة خلف الطغيان فى المجتمع المصرى وليس كلها، وقد قال فى هذا المعنى بارتملى سانت هيلر:

«منذ الفراعنة كتبت على سكان مصر العبودية السياسية، وإنى أبعد ما أكون عن

القول بأن النيل هو السبب الوحيد لهذا الوضع المحزن، وإنى لمدرك أن ثمة كثيرا من الناس أكثر عبودية وبؤسا دون أن يكون لديهم نيل. كل ما أود أن أقوله هو أن النظام الطبيعى لهذا النهر العظيم كان فى مصر أحد أسباب الطغيان، لقد وجد الطغيان فيه نوعا من الضرورة، وكذلك حجة وذريعة خاصة» (Saint Hilaire،1857)

وهذا الموقف ترك لدى الشخصية المصرية مجموعة من أخلاق العبيد مثل المداهنة والمسايرة والخضوع والتسليم للسيد أيا كان هذا السيد (رئيسا فى العمل أو زوجا أو حاكما). ويبدوا أن المصريين من كثرة ما تعرضوا للإستعمار والإستبداد تعودوا أن يتعاملوا على أنهم رعايا لا مواطنين، فهم يكتفون ويرضون بلقمة العيش والوظيفة – أيا كانت – ولا يطمحون لحقوق المواطنة والكرامة والسيادة إلا فى المواقف التى يستفز فيها المستعمر الخارجى الكرامة الوطنية إلى درجة جارحة، هنا ينتفض المصريين لدفع هذا الإستعمار ثم ما يلبثوا أن يعودوا لسابق عهدهم الذى وصفناه.

وفى الوقت الحالى تفشت ظاهرة البلطجة (وهى تطوير عصرى لظاهرة الفتونة)، والبلطجى يجد طريقه ممهدا لترويع الناس وإذلالهم حين تنعدم أو تضعف الإرادة الجماعية القادرة على مقاومته، فبالتأكيد تفوق قوة الناس مجتمعين قوة أى بلطجى يهددهم ويسرق قوتهم ويذلهم ولكن الإرادة الجماعية قليلا ما تنعقد فى مواجهة البلطجى، فيلجأ كل شخص إلى إيجاد صيغة تعايش فردية مع هذا البلطجى فيتضخم الأخير ويتوحش.

وهذا الوضع قائم بوضوح فى علاقة المصرى بحكامه فى كثير من المراحل التاريخية، سواء كان هؤلاء الحكام من المستبدين الخارجيين (الإستعمار) أو المستبدين الداخليين (الحكام من أبناء الوطن).

والخضوع أمام السلطة يقابله زيادة فى العنف البينى أو التحتى (إزاحة العدوان، فهذا المصرى الذى يخضع لسيده، بل وينسحق أحيانا تحت قدميه، نراه يمارس عنفا مباشرا أو غير مباشر مع من حوله من زملائه أو جيرانه أو من يقصدونه لقضاء مصالحهم (إن كان موظفا)، وفى البيت نجده يمارس العنف ضد زوجته وضد أولاده، وكأنه يعمل على إزاحة عدوانه من السيد الذى يقهره ولا يقدر عليه (أو لا يريد أن يكلف نفسه عناء

مقاومته) إلى أناس آخرين يجد فى نفسه القدرة عليهم، وهذا يحيل الحياة المصرية المعاصرة إلى حالة من العدوان الظاهر (السباب والمشاجرات فى الشارع والسوق، والإعتداء اللفظى والجسدى على الزوجات والأبناء)، والعدوان السلبى (اللامبالاة والكسل والتراخى وتعطيل المصالح والمكايدة والتجاهل).

وهناك أمثلة شائعة تبين مدى العدوان السلبى الذى يمارسه المصرى تجاه من يقهره نذكر منها: «مد له الحبل لحد ما يخنق نفسه»..... «اصبر على جارك السو يايرحل ياتجيله داهية تاخده».... «انصح صاحبك من الصبح للضهر وبقيت النهار ضلله».... «ياكشى تولع»... «إن خرب بيت ابوك خدلك منه طوبة»

***

المجتمع المصرى بين الإستقرار والجمود

أحد سمات هذا المجتمع هى الإستقرار النسبى عبر تاريخه الطويل مقارنة بمجتمعات عربية أخرى محيطة به، ولهذا الإستقرار أسباب سياسية وأسباب اقتصادية وأسباب اجتماعية وأسباب دينية وأسباب نفسية. فمن الأسباب السياسية مثلا حالة الإستبداد التى عاش فيها المصرى وأصبحت جزءا من حياته اليومية اعتاد عليه وأصبح لا يستنكره فضلا عن أن يقاومه، فقد ترسخ لديه فى الحقبة الفرعونية أن الحاكم مقدسا وأنه صنو الإله وأن الخروج عليه يستوجب غضب السماء، وفى الحقبة المسيحية تعلم أن يدع مالقيصر لقيصر وما لله لله، وتعلم إذا ضربه أحد على خده الأيمن أن يدير له خده الأيسر، وفى الحقبة الإسلامية فسر له الفقهاء آية «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» على أنها تستوجب الطاعة المطلقة للحاكم بأمر الله وأن الخروج على الحاكم كفر مهما كانت الأسباب، وهنا تداخلت الأسباب السياسية مع الأسباب الدينية لتهىء لحالة الإستقرار الذى تحول إلى استبداد ثم إلى جمود. فإذا انتقلنا إلى الأسباب الإجتماعية وجدنا أن الترابط الأسرى والإجتماعى الوثيق لدى المصرى والذى يدعمه تلك التركيبة العاطفية الجياشة لدى المصرى إضافة إلى الحالة الدينية التى تدعوه دائما إلى التراحم والتكافل، كل ذلك يجعل المجتمع المصرى أقرب إلى الإستقرار ويجعله عصيا على التفكك أو التناحر تحت مطارق الأزمات أو الإنشقاقات فهو غالبا ما يعود إلى ترابطه وتكافله، ولك أن تتأمل قرية تقوم بين عائلاتها مشاجرات حامية ثم تجدهم بعد أيام وقد تم بينهم الصلح أو جمعتهم مصيبة عامة أصابتهم أو أصابت قريتهم فتجد روحا من المودة والتكافل قد حلت محل الخصام والشقاق، وهذا مالا يحدث بسهولة فى مجتمعات أخرى.

وإذا جئنا إلى الأسباب النفسية نجد أن المصرى لديه قدرة هائلة على التكيف مع الظروف المختلفة ومع الأحوال المتباينة ولديه قدرة هائلة على التحمل وعلى الصبر تجعله لا يميل إلى المواجهة أو التغيير، بل ينتظر الزمن أو القدر ليغير ماهو فيه، وإلى أن يحدث

ذلك يقوم هو بتكييف نفسه وضبط احتياجاته طبقا لما تسمح به الأوضاع القائمة.

والبعض يفسر الإستقرار فى المجتمع المصرى (والذى يصل إلى الجمود أحيانا) بأنه عائد إلى الطبيعة المعتدلة لدى المصريين فهم لا يميلون للعنف أو للتغيير السريع، ويفسر الدكتور جمال حمدان ذلك فى كتابه «شخصية مصر» بقوله: «لا غرابة إذن فى أن تكون السلطة والحكم والنظام فى مصر دائما هى أكبر دعاة الإعتدال المصرى المزعوم وأشد المهللين المحبذين المزينين له ومحترفى التغنى المخادع الماكر به. ذلك لأن الإعتدال المرضى ليس فقط ضمان البقاء المطلق لهم، ولكن أيضا ضمان التسلط والسيطرة المطلقة. فمجتمع هذا النوع من الإعتدال العاجز هو مجتمع بلا صراع، هو مجتمع من العبيد أو قطيع من الأقنان. وإذا كان النظام الحاكم يباهى دائما بما يسميه الإستقرار فى المجتمع المصرى، لا سيما فى مقابل عدم الإستقرار الذى يميز معظم الدول العربية الشقيقة، فإن الحقيقة والواقع أن ذلك إنما هو استقرار الجسد الميت والجثة الهامدة، وإذا كان صحيحا أن بعض الدول العربية وغير العربية فى المنطقة تعانى فعلا من عدم الإستقرار، فإن ما تعانى منه مصر حقيقة إنما هو فرط الإستقرار»

***

المزاج بين الحزن والمرح

هناك حيرة فى توصيف الشعب المصرى، فالبعض يراه شعبا حزينا امتلأ تراثه القديم بالبكائيات والجنائزيات وتراثه الشعبى وحياته اليومية يشهدان على ذلك ويؤكدانه، والبعض الآخر يراه شعبا مرحا حاضر النكته صخّاب فى الأفراح والمناسبات.

كثير من الدراسات تشير إلى أن المزاج الأساسى للشعب المصرى يميل إلى الحزن، وقد استشهدوا على ذلك بأن الحضارة المصرية القديمة تركت قبورا ولم تترك قصورا، كما طغت عليها فكرة الموت والثقافة الجنائزية التى تطيل أمد الحزن فتحيى ذكرى الميت أيام الخميس ثم الأربعين ثم السنوية، وهناك كتاب فرعونى هام هو كتاب الموتى،..... إلخ. ولكن هذه الملاحظات ربما تصطدم أو تتناقض مع ما عرف عن الشعب المصرى من ولعه بالنكته وظهور الكثير من مظاهر المرح فى حياته،بل وأحيانا مبالغاته فى المرح إلى حد الصخب. والحقيقة أنه لا يوجد تعارض من الناحية النفسية فمن المعروف علميا أن الحزن حين يكون كامنا بعمق فى الشخصية يمكن أن يدفع فى ظروف معينة إلى تكوين فعل عكسى فى صورة مرح، وهنا يكون المرح ثانويا أو رد فعل للحزن الكامن ويكون صاخبا حتى لا يعطى فرصة للحزن الكامن أن يظهر، وهذا ما نلحظه فى أفراح المصريين ومناسباتهم السعيدة حيث نجد مبالغة فى الصخب والفرح. وربما يكون انتشار تعاطى الحشيش وبعده البانجو فى المجتمع المصرى عائدا إلى طبيعة الحزن الكامن لديه فهو يختار المخدر الذى يخفف من حدة الإكتئاب ويعطيه إحساسا وقتيا بالمرح والفرفشة، فمن المعروف أن اختيار أى شعب للمخدر الذى يتعاطاه يرتبط بطبيعة هذا الشعب ولا يأتى الإختيار عشوائيا أو عفويا.

ويبدو أن الشعب المصرى يتسم عموما بالطبيعة العاطفية التى تميل إلى المبالغة فى الإنفعالات والتعبير عنها، فمثلا تجد عددا كبيرا يشارك فى الجنازات وخاصة جنازات الكبار والزعماء، ولقد لفت نظر علماء النفس والإجتماع جنازة عبدالناصر التى مشى فيها

حوالى ٥ مليون مصرى، وهذا لا يحدث فى الغرب مطلقا حيث لا يتبع الميت إلا عدد محدود من أقاربه، وعلى الجانب الآخر نرى المبالغة فى الأفراح إلى حد الترف والصخب.

والمصريون يعبرون عن حزنهم بوضوح فتجد الصراخ والعويل والنحيب فى لحظات الفقد المؤلمة، أما فى غير ذلك فتجد مزاجا حزينا ومسحة من الكآبة تميز الحياة المصرية المعاصرة بشكل عام فلا تخطئها فى العيون التى تلقاها، فالحزن لديهم أعمق من الفرح، وهم حين يفرحون يخشون لحظة هجوم الحزن الأكبر فيقولون: «اللهم اجعله خير» فتوقعاتهم بالحزن قائمة ودائمة ومخيفة، وهم يعتبرون الفرح لحظة عابرة سرعان ما تزول، وربما يفسر هذا صخبهم فى الأفراح والمناسبات فكأنهم يريدون أن يدفعوا تلال الحزن الجاثمة على صدورهم من خلال المبالغة فى الفرح.

والمصرى لديه شعور بالإنكسار والإذلال والشعور العميق بالظلم على المستوى الفردى وعلى المستوى الجماعى، فعلى المستوى الفردى يشعر أنه يتمتع بمميزات عقلية ومهارات حياتية ومع هذا يعيش فى ضنك من العيش ويحتاج لأن يحنى رأسه هنا أو هناك لكى تستمر حياته، وعلى المستوى الجماعى هناك تباين بين حجم مصر الحضارى والثقافى وحجمها السياسى والعسكرى والإقتصادى، فهى كما يقولون دولة عظمى ثقافيا وحضاريا ولكنها ليست كذلك

(على الأقل حاليا) على المستوى السياسى والإقتصادى والعسكرى، لذلك فالمصرى يشعر أنه وبلده أشبه بعزيز قوم ذل، ويتأكد لديه هذا الشعور كلما سافر إلى هنا أو هناك فوجد أنه لا يأخذ ما يستحقه من احترام أو تكريم أو تقدير لمواهبه، وأن جنسيته المصريه لا يعمل لها الناس (عربا وأجانب) أى حساب، وأنه يمكن أن تسلب حقوقه وتهان كرامته دون أن يهب أحد للدفاع عنه، لذلك فهو يرضى بما يحدث له ويلجأ إلى الصبر والشكوى إلى الله من ظلم يستشعره على المستوى الفردى والجماعى وجرح للكرامة الشخصية والوطنية من جراء التوحش الأمريكى والتبجح الإسرائيلى والإهمال العربى.

وهذا الشعور العميق بالظلم يفجر مشاعر الكآبة والدونية لدى المصرى، ويتبدى

هذا فى بعض الأمثال الشعبية مثل: «ربنا ما سّوانا إلا بالموت».... «إذا شفت الفقير بيجرى إعرف إنه بيقضى حاجه للغنى».... «ابن مين اللى محمول؟ ابن اللى عندها مأكول، وابن مين اللى ماشى؟ ابن اللى ماعندهاشى»... «إذا غنى أكل حية قالوا من حكمته، وإذا أكلها فقير قالوا من حموريته».... «خذوا من فقرهم وحطوا على غناهم».... «أبو ميه بيحسد أبو لبنية»..... «عريان بيجرى ورا مقشط».... ويبلغ الإحساس باليأس والعدم فى قول: «إيش تاخد الريح من البلاط».... «ضربوا الأعور على عينه قال خسرانه خسرانه»،.... هذه عينة من الأمثال اليائسة العدمية التى تعطى إحساسا مرا باللاجدوى يعقبه إحساس باليأس والحزن.

والمصرى فى كثير من مراحل تاريخه كان بين مطرقة الإستبداد وسندان الفقر، فبجانب معاناته من الفقر يضاف خوفه من الحاكم المستبد ومحاولة تملقه، وهذا يظهر فى الأمثال التالية:

«إن كان لك عند الكلب حاجه قل له ياسيد»..... «القوى عايب»..... «اسجد للقرد فى زمانه»..... «أربط الحمار مطرح ما يعوز صاحبه»..... «إذا لقيت الناس بتعبد العجل حش وارميله»..... «اللى يتجوز امى أقول له يا عمى»....

والمصرى الحديث ربما هو الشخص الوحيد القادر على العيش فى المقابر من بين خلق الله جميعا، فهو ربما لم يجد مسكنا يؤيه وهذا هو السبب الظاهر، أو أنه يشعر بألفة مع الموت والأموات، ويشعر بألفة مع الحزن ولا يجد فرقا بين حياته التعسة وموته.

ويقول الدكتور نبيل راغب فى كتابه «الشخصية المصرية بين الحزن والمرح» (دار الثقافة ١٩٩٢): «إن نصوص الأهرام، ونصوص الأكفان، وكتاب الموتى تؤلف معا المادة التى تمثل الأدب الدينى المصرى القديم» .... «وهذا الإهتمام الشديد بالموت أدى عبر الأجيال والعصور والقرون إلى تحكم الموتى فى الأحياء. وهذه ظاهرة خطيرة لأنها تشل عناصر القوة والتطور والإنطلاق على هذه الأرض، وتخلق حساسيات يمكن أن توقف علاج مشكلات الناس وحفظ حقوقهم، ذلك لانصراف بعض أعضاء المجتمع المصرى

المعاصر عن التركيز على القضايا الدنيوية ذات الطبيعة العاجلة والملحة إلى قضايا تدخل فى نطاق العدم الذى يشل الحركة تماما»... «ولعل الظاهرة الفريدة التى يندر وجودها فى مجتمع آخر غير المجتمع المصرى، تتمثل فى نشر أخبار الوفيات والتعازى التى تتضمن تعبيرات الحزن والأسى والإبتهال على عدة صفحات من الجرائد اليومية دون استثناء. وهذه الصفحات هى الشغل الشاغل للكثيرين من القراء الذين يبدأون بها قراءة جريدة الصباح»..... «كل هذا وغيره يدل على أن مظاهر الحزن وتقاليده وعاداته جزء لا يتجزأ من التراث الثقافى المصرى، وبرغم ما طرأ عليه من تغيرات بمرور الزمن فإن جوهره لايزال واحدا. وهذه الخاصية المتأصلة لم يخفف من رسوخها حب المصريين للمرح والدعابة وإتقان فنونها، فهم يبكون إذا حزنوا، كما يبكون إذا فرحوا، وإذا بدا لهم أن الفرح زاد عن الحد، فإنهم سرعان ما يتراجعون عنه ولسانهم يلهج: «اللهم اجعله خير». كذلك فهم يضحكون بصوت عال أكثر مما يبتسمون، ويبكون أيضا بصوت عال، ويحزنون كثيرا، ولكن قليلا ما يغضبون، وإذا غضبوا فإنهم سرعان مايصفون، ومع كل هذا فإنهم شعب محب للحياة، بل وعاشق لها، برغم كل الضغوط والظروف المحيطة التى يعانون منها، والدليل على ذلك حرصهم على الإحتفاظ على توازنهم النفسى من خلال إتقانهم لفنون الدعابة والمرح والنكتة»

والمصرى يستخدم النكتة والدعابة للتخفيف من معاناته فمن خلالها يستطيع أن يسخر من المستبدين به ويهينهم ويقلل من هيبتهم، وهى وسيلة لتصريف العدوان والغضب حتى لا يتراكم لديه ويدفعه إلى الثورة، وربما يفسر ذلك تأخر الثورة عند المصريين وقلة الغضب مقارنة بمشاعر أخرى مثل الحزن والفرح على الرغم من وجود أسباب كثيرة للغضب. والنكتة والمرح عموما دفاع ضد الحزن العميق الكامن فى الشخصية المصرية، ولهذا تجد المصريين يضحكون كثيرا رغم أنهم ليسوا سعداء، وترى العكس فى شعوب أخرى لا يضحكون على الرغم من أنهم سعداء.

ويقر جوستاف لوبون بأن الظرف والمرح والتلطف من أبرز خصال المصريين

القدماء. وكثيرا ما دعا أدباؤهم وحكماؤهم إلى الأخذ بأسباب البهجة والمرح فى الحياة أينما كانت وحيث وجدت. بل لم ينسوا أن يحضوا على الإبتهاج وإشاعة السرور حتى وهم فى زيارة المقابر وبين الموتى. تقول إحدى الأغنيات فى ولائمهم التى كانوا يقيمونها فى المقابر:

«متع نفسك مادمت حيا، ضع العطر على رأسك، والبس الكتان الجميل، ودلك يدك بالروائح الذكية المقدسة، وأكثر من المسرات و ولا تدع الأحزان تصل إلى قلبك، كن مرحا حتى تنسى أن القوم سيحتفلون يوما بموتك» (نبيل راغب ١٩٩٣، الشخصية المصرية بين الحزن والمرح) .

***

النرجسية

حين تتابع نشرات الأخبار فى التليفزيون المصرى أو تقرأ الصحف المصرية ستجد مثل هذه الأشياء:

- الرئيس الأمريكى يشيد بحكمة القيادة المصرية ويتبنى وجهة نظرها فى حل مشكلات الشرق الأوسط.
- الأمم المتحدة تعترف بأن الدور المصرى هو الأهم فى رسم ملامح السياسة فى الشرق الأوسط .
- المجتمع الدولى يشيد بتجربة الإصلاح السياسى فى مصر ويعتبرها نموذجا يحتذى .
- البنك الدولى يشيد بالتجربة الإقتصادية المصرية ويعتبرها الأنجح فى التحول إلى نظام السوق.
- العالم كله يتابع باهتمام شديد خطوات مصر نحو الديموقراطية وحقوق الإنسان.
- تليفزيونات وإذاعات العالم تتابع خطاب السيد الرئيس وتعتبره ورقة عمل سياسى فى السنوات القادمة.
- البنك الدولى يشيد بتجربة التنمية الإقتصادية فى مصر.
- الإقتصاد المصرى لن يتعرض لمثل ماتعرضت له دول جنوب شرق آسيا.
- مصر غير معرضة لمرض انفلونزا الطيور، وقد اتخذت الإجراءات الكفيلة بتأمين أجوائنا وموانينا ومطاراتنا ضد أى احتمال لعبور المرض.

وهكذا تجد ذلك الخطاب النرجسى الذى يعطيك انطباعا بأن مصر هى محور العالم كله، وأن المصريين هم الأذكى والأقوى والأكثر حكمة وبراعة، والمحصنين ضد كل

الأمراض المعدية، وأن العالم كله يقف على قدم وساق ليتابع أقوالنا وأفعالنا وتصريحاتنا، وأن كل الجهات العلمية والمؤسسات البحثية تتبع خطانا الهائلة نحو التقدم والرقى وتستفيد بتجاربنا الرائدة فى العلوم والتكنولوجيا والديموقراطية وحقوق الإنسان. هكذانرى أنفسنا، ونغنى كثيرا لأنفسنا ولمصر، ولا نرى فى الدنيا شيئا آخر يستحق الإهتمام فضلا عن الإعجاب فلدينا كل شئ، ونحن كل شئ.

هذا التضخم الذاتى يجعلنا بعيدين عن الواقع وغير قادرين على رؤية أخطائنا ومواطن ضعفنا وقصورنا، وغير قادرين على التعلم من خبرات غيرنا. وللأسف الشديد تتكرر الصدمات ولكننا – على المستوى الرسمى والإعلامى – مصرون على هذه النغمة النرجسية. وهناك متغير شديد الخطورة، وهو أن كثير من الشباب قد دخلوا فى حالة رد فعل عكسى تجاه هذه التصريحات والبيانات النرجسية، وراحوا ينظرون إلى بلدهم بشكل دونىّ يضعف انتماءهم ويجعلهم يحلمون بالهجرة إلى أى مكان وفى أقرب فرصة سانحة، وهذا رد فعل على حالة الفخر الكاذبة فى الخطابين الرسمى والإعلامى كما ذكرنا.

❊ ❊ ❊

الثقافة السمعية

على الرغم من تعدد الكتاب والمفكرين والمثقفين فى مصر إلا أن عادة القراءة ضعيفة جدا لدى عموم المصريين، فمن النادر أن تجد الناس وهم جالسون فى وسائل المواصلات يقرأون كتبا، وإذا وجدتهم يقرأون فهم يقرأون الجرائد، وأغلبهم يفتح الصفحات الرياضية فيها، ونادرا ما تجد شخصا يجلس على البحر تحت شمسية ويتصفح كتابا، أو تجد شخصا واجهته مشكلة حياتية أو عملية بدأ يبحث عنها بين صفحات الكتب. ولذلك تجد الثقافة المصرية فى أغلبها سماعية انطباعية انفعالية سطحية، فالناس تفضل أن تسأل فى كل شئ وفى أى شئ، وربما هذا يفسر ذلك الكم من الأسئلة الغريبة والتافهة أحيانا التى توجه لعلماء الدين أو للمتخصصين فى الطب أو غيره على شاشات الفضائيات، تلك الأسئلة التى تبين عدم بذل جهد من جانب السائل فى المعرفة عن طريق القراءة والبحث الشخصى، لذلك يسأل (أو تسأل) كطفل اعتمادى سلبى يريد الإجابة جاهزة لا تكلفه عناء التفكير. وفى كثير من الندوات التى تستمر لساعات وتناقش فيها موضوعات حيوية وهامة بشكل فعّال كنا نواجه بسؤال طفلى ساذج من الحاضرين: «وما هو الحل إذن... إنكم لم تعطوننا حلولا»، يحدث هذا على الرغم من أن كثيرا من الحلول تكون قد طرحت فى ثنايا المحاضرات أو المناقشات، ولكن المتلقى السلبى لا يكلف نفسه تجميع هذه الحلول أو التساؤل بشأنها أو بحثها والقراءة عنها فى مصادر أخرى، هو فقط يريد حلولا جاهزة يجمعها له المحاضر فى نقطة أو نقطتين بشرط أن تكون حلولا سهلة لا تحتاج منه إلى تفكير أو بذل جهد، باختصار هو يريد حلولا سحرية.

وقد كنا نعمل فى أحد المستشفيات ضمن فريق متعدد الجنسيات، كان من الملحوظ أن الأطباء المصريين يقضون وقتا طويلا مع المرضى ويبذلون جهدا واضحا ولكنهم لم يكونوا يسجلون ما يقومون به فى ملفات هؤلاء المرضى، وبما أن الإدارة كانت تتبنى المنهج الغربى لذلك كانت ترى ذلك عيبا كبيرا لأن العمل الذى لا يوثق كتابة كأنه لم

يكن، وقد أخذ ذلك وقتا حتى تعود الأطباء المصريون على تسجيل ما يقومون به من أعمال حتى يمكن تقييمه بواسطة الإدارة.

وللأسف الشديد هذا يحدث لدى المصريين المعاصرين على الرغم من أن أجدادهم المصريين القدماء كانوا مهتمين بتسجيل كافة تفاصيل حياتهم على جدران المعابد وعلى ورق البردى بشكل مذهل. ويبدو أن ذلك يرجع لتقدير الإنسان لذاته فكلما ارتفع تقديرنا لذاتنا ولما نقوم به من أعمال كلما زادت دوافعنا لأن نكتب ونسجل ما نقوم به، والعكس صحيح، فيبدو أن المصرى المعاصر يشعر بضعف القيمة لذاته أو لأعماله (لاحظ قلة أغنيات الفخر والتباهى بالمصريين فى السنوات الأخيرة) لذلك لا يرى مبررا لكتابتها أو تسجيلها.

❊ ❊ ❊

ضعف الإدارة الجماعية رغم كثرة الكفاءات الفردية

فهناك غياب ملحوظ فى القدرة على العمل كفريق على الرغم من وجود كفاءات فردية متميزة فى كل المجالات، ولهذا نجد بطولات وإنجازات متعددة على المستوى الفردى (٤ جوائز نوبل وعدد كبير من الشخصيات الفذة فى كل المجالات العلمية والفنية والأدبية والسياسية والدينية) يقابلها فشل ملحوظ فى الإدارة الجماعية. وهناك بعض التفسيرات لحديث الرسول ﷺ: «**إذا فتحتم مصر فاتخذوا منها جندا فهم خير أجناد الأرض.....**» (أو كما قال ﷺ)، فقد حدد ﷺ كلمة جندا، فإذا أخذناها كما هى «**جندا**» وليس «قادة» فيمكننا أن نفهم مالديهم من قدرات قتالية وليس قدرات قيادية، وربما يؤكد التاريخ هذا التفسير (القابل بالطبع للإختلاف حوله كأى جهد تفسيرى بشرى للنصوص الدينية) أن الكثير من الإنتصارات العظيمة تحققت بجند مصريين وقادة غير مصريين، فصلاح الدين لم يكن مصريا وقد انتصر على الصليبيين فى موقعة حطين، وقطز لم يكن مصريا وانتصر على التتار فى موقعة عين جالوت بجند مصريين، والأمثلة على ذلك كثيرة، وهى تعنى فى النهاية كنز من الكفاءات والقدرات والعقول الفردية، لا يقابله تميزا فى العمل الجماعى أو العمل كفريق أو الإدارة الجماعية الفعّالة، وهذا يجعل المصرى علامة مميزة حين يعمل فى نظام علمى أو إدارى جيد فى خارج بلده ثم تجده عكس ذلك فى داخل بلده.

ففى مصر دائما أزمة قيادة وأزمة إدارة، ومشكلة دائمة فى أى عمل جماعى يزيد أفراده عن شخص واحد، فما اجتمع شخصان إلا ودبت المشكلات فى العمل. وربما يرجع هذا إلى الغرام بالتفوق الفردى والبطولات الفردية والنجم الأوحد والزعيم الأوحد، ذلك الغرام الذى يجعل هم الناس الإنفراد بالمكان والمكانة، والبحث عن الشهرة والمجد الفرديين بصرف النظر عن الإنجاز العام الذى يحتاج لجهود متآزرة ومتناسقة. وقد أدى هذا الوضع إلى تأخر صعود مصر إلى ما تستحقه من مكانة على المستوى السياسى أو

الإقتصادى أو الصناعى أو الرياضى، وإلى سبق كثير من الدول الأقل منها حظا فى الحضارة والملكات الفردية (ماليزيا وتايوان وكوريا كأمثلة).

وحالة الفردية والتفرد تنتشر من أعلى قمة الهرم (السياسى أو الإجتماعى أو الدينى) لتصل إلى أدنى مستويات العمل (الأسطى فى ورشته)، وتمنع الإستفادة من تراكم العمل الجماعى المتناسق والمتعاون، وتمنع تكوين منظومات عمل قابلة للنمو والتطور من جيل لجيل، وهذا الغياب لتلك المنظومات يجعلنا نبدأ من الصفر فى كل مرحلة ونعيد نفس الأخطاء.

وإذا أخذنا الرياضة كمثال (اخترنا الرياضة إيثارا للسلامة وابتعادا عن مجالات أكثر حساسية) لوجدنا أننا كمصريين ربما نحقق إنجازات عالمية فى بعض الألعاب الفردية مثل السباحة

(عبداللطيف أبوهيف ورانيا علوانى)، أو المصارعة (كرم جابر)، ولكننا نفشل فشلا ذريعا فى كرة القدم (كلعبة جماعية تحتاج لإدارة وعمل جماعى) رغم وجود أندية عريقة جدا لدينا.

* * *

النظام الداخلى رغم الفوضى الظاهرة

إذا تأملت النظام السياسى أو الإدارى فى كثير من المراحل التاريخية يخيل إليك أن البلد (مصر) على وشك الضياع أو الإنهيار أو الحرب الأهلية، ولكن هذا لا يحدث على الرغم من قسوة الظروف واضطراب الإدارة. ويمكنك أن ترى مثالا مصغرا لذلك فى بعض التقاطعات فى المدن حيث يغيب شرطى المرور نتيجة لإهمال أو تراخ، ويحدث تداخل بين السيارات من الإتجاهات المختلفة وتحدث أزمة مرورية، وفجأة تجد مواطنا أو أكثر(ليس لهم علاقة بالمرور) تطوعوا بإدارة الأزمة وبدءوا فى تنظيم حركة السيارات، وهذا يحدث فى التعامل مع الحوادث والحرائق والأزمات الكبيرة حيث تجد أن هذا الشعب الفوضوى ظاهرا أو فى أغلب حالاته قد تحول إلى طاقة هائلة ومنظمة تواجه الأزمة أو الحادث وتعوض القصور الحكومى والإدارى فى مواجهة مثل هذه المواقف.

وقد اتضح هذا فى زلزال ١٩٩٢، حيث قام الأهالى (بعد إفاقتهم من صدمة الزلزال) بتنظيم صفوفهم ومحاولة إنقاذ المنكوبين بكل الوسائل الممكنة، ولم ينتظروا ذلك من الحكومة فهم قد تعودوا على قصور أدائها، وفعلا نجحوا فى تقليل آثار الأزمة لحد كبير، ومن المذهل أنه بعد الزلزال ولمدة ثمانية وأربعين ساعة لم تسجل فى أقسام الشرطة جريمة واحدة، وفى هذا دلالة مهمة لا نستطيع تقديرها إلا إذا قارنا هذا بما حدث فى زلزال كاليفورنيا أو إعصار كاترينا فى أمريكا حيث انطلقت موجات السلب والنهب والفوضى فى وقت الأزمة، أو قارنا ذلك بسقوط حكم صدام فى العراق وانطلاق موجات السلب والنهب التى لم يوقفها بعد أيسابيع إلا نداءات صدرت من المساجد تدعو الناس للإلتزام بقواعد الدين الحنيف وإعادة مانهبوه إلى المساجد ليتم التصرف فيه وفق القواعد الشرعية.

نجد ذلك أيضا فى جانب الإلتزام الأخلاقى والدينى لدى أفراد هذا الشعب العجيب، فعلى الرغم من الحملات السياسية والإعلامية المضادة للإلتزام الدينى

والواصمة له بالإرهاب والتطرف إلا أنك تجد الناس يزدادون التزاما وتمسكا بالدين (على الرغم مما لديهم من تناقضات)، ولو طفت الأرض شرقها وغربها فلن تجد التزاما طوعيا عميقا بالدين كما ستجده فى المصريين، وهذه شهادة أقولها وقد طفت بلدانا إسلامية وربما رأيت التزاما ظاهريا غالبا فى بعضها تدعمه السلطة السياسية والدينية، ولكن لا يقابله هذا الإلتزام الداخلى الطوعى العميق الذى تجده فى الشخصية المصرية.

وعلى المستوى الأخلاقى، فعلى الرغم من وجود الخمر تباع فى بعض المحلات ووجود الكباريهات والمراقص ووجود مظاهر للتحلل على هذه المستويات إلا أنك تجد غالبية الشعب المصرى لا يشربون الخمر ولا يرتادون هذه الأماكن، وهم فى داخلهم محافظون على كثير من القيم الأخلاقية التى تحلل منها آخرون، وقد تأكدت لى هذه الملاحظة من خلال ممارسة العلاج النفسى فى أكثر من مجتمع عربى فوجدت التزاما أخلاقيا ودينيا طوعيا لدى الشخصية المصرية يفوق الكثير من المجتمعات الأخرى التى تتميز بالإنضباط الدينى والأخلاقى الظاهرى.

والتفسير النفسى لذلك ربما يرجع إلى وجود منظومة دينية وأخلاقية ومجتمعية عميقة ترسبت فى نفس المصرى عبر القرون الكثيرة وشكلت حالة من النظام الداخلى والإلتزام الشخصى الذى يتجاوز الظروف الخارجية. وربما يقول قائل: إذا كانت هناك تلك المنظومة من الإلتزام والنظام والإنضباط النسبى الداخلى الرائع والذى يظهر فى وقت الخطوب والأزمات، إذن بماذا تفسر اضطراب الحياة المصرية وعشوائيتها ظاهرا؟..... والجواب على ذلك يرجع إلى العلاقة الملتبسة بالسلطة فى أغلب مراحل الحياة المصرية والتى خلفت سلوكيات عدوانية سلبية تجاه السلطة وما تمثله من نظام، تلك السلوكيات التى تختفى وقت الأزمات وتختفى حين يخلو المصرى بنفسه ولا يجد ضرورة للعناد السلبى أو العدوان على السلطة بتخريب الظاهر.

❊ ❊ ❊

نمط التفكير

التفكير هو تلك العمليات العقلية المجردة التى تسبق الفعل.

واستعراض التاريخ المصرى يبين نماذج رائعة من المفكرين الأفذاذ فى كل المراحل التاريخية، هؤلاء المفكرون الذين أثروا الثقافة العربية وجعلوا مصر تستحق وصف «منجم الفكر والإبداع فى العالم العربى».

فإذا انتقلنا من هذا المستوى النخبوى إلى مستوى رجل الشارع العادى أو حتى الطبقات المتوسطة فإننا نلحظ أن التفكير لدى المصريين يغلب عليه بعض الصفات التالية منفردة أو مجتمعة:

١ – **غلبة المشاعر والإنفعالات** على المنطق والموضوعية

٢- **الموقف الإستقطابى تجاه الأفكار الجديدة**، والذى يظهر إما فى الإستسلام والتسليم الكامل لها أو فى رفضها نهائيا دون المرور على المراحل البينية فى الرؤية، وربما يعود هذا إلى النقطة السابقة من غلبة المشاعر وضعف الموضوعية

٣- **اللجوء للقوة** أو للهجوم الشخصى للتعامل مع الأفكار بديلا عن تفنيدها ودحض الحجة بالحجة

٤ – **وجود الكثير من أخطاء التفكير مثل**: التعميم والتهويل والتهوين والإستنباط التعسفى والتفكير الخرافى. والتفكير الخرافى بشكل خاص يأخذ مساحة كبيرة فى العقلية المصرية، وهذا يرجع إلى حد كبير إلى العلاقة الملتبسة بالغيب، فنظرا لقدم الأديان على أرض مصر وتنوعها بين أديان سماوية وأديان كهنوتية فقد تشبعت الشخصية المصرية بأفكار مختلطة عن الغيب وتأثيراته فى حياتها، لذلك تتداخل الكثير من القوى غير المرئية فى حسابات المصرى، بعض هذه القوى غيبيا دينيا وبعضها أسطوريا خرافيا، فالمصرى يولى عناية كبيرة بعالم الجن والقوى الخفية كالسحر والحسد ويعزو إليها الكثير من أحداث حياته ويفسر بها الكثير من الظواهر. وهذا التفكير الخرافى (المتجاوز قطعا لمفهوم الغيب

فى الدين الصحيح) لا يقتصر على رجل الشارع وإنما يمتد ليشمل كثير من المستويات التعليمية والثقافية، وهذا يبعد الشخصية المصرية عن المنهجية العلمية فى التفكير وحل المشكلات، وربما يكمن هذا

(بجوار الفساد السياسى والبيروقراطية الإدارية) وراء تراكم المشكلات وتحولها لأزمات فى جوانب كثيرة من حياة المصريين على الرغم مما حباهم الله به من موارد متعددة وطبيعة معتدلة.

٥ – **ضعف الجوانب المعرفية**: أو كما أطلق عليها يوسف إدريس «فكر الفقر وفقر الفكر»، فعلى الرغم من أن رجل الشارع المصرى يتحدث كثيرا ألا أنك تلحظ على محتواه المعرفى عدة أشياء منها:

– سطحية المعلومات

– أغلب معلوماته عبارة عن انطباعات شخصية يغلب عليها الإنفعال والتحيز الشخصى

– أغلب المعلومات – إن لم تكن كلها – سماعية شفاهية. فقليلا ما يلجأ رجل الشارع المصرى العادى إلى قراءة كتاب ليحل مشكلة تواجهه وإنما هو يفضل أن يسأل أحدا

٦ – **أحادية التفكير**: بحيث يرى الموضوع (أو يحب أن يراه) من جانب واحد يرتاح إليه، وهذا مرتبط بغلبة الجوانب الإنفعالية المتحيزة ومرتبط أيضا بضعف الجوانب المعرفية والمعلوماتية والتى تجعل المعلومات المتوفرة غير كافية لرؤية محيطية شاملة أو رؤية متعددة المستويات، لذلك ترى أحكام كثير من المصريين قاطعة ومطلقة، وهى أحد سمات التفكير البدائى والدوجماتى الذى ينطلق من قوالب ثابتة ولا يرى غيرها بسهولة.

٧– **ضعف ملكة الفكر النقدى**: ذلك الفكر القادر على رؤية الجوانب المختلفة لأى موضوع بحيادية وتجرد، والقادر على تجنب المنزلقات الفكرية (تحت الضغوط السلطوية) أو التحيزات العاطفية (تحت ضغوط الإحتياجات الذاتية)، أو ردود الفعل الدفاعية.

٨ – **ثقافة «الكلام الكبير»**: هذا التعبير مأخوذ عن كتاب طارق حجى «نقد العقل

العربى»، والذى يعيب علينا فيه لجوءنا إلى المبالغات السطحية والكاذبة والتى تعزلنا عن حقائق الأمور وعن الرؤية الموضوعية، فنحن نتعامل مع تاريخنا الماضى بحسناته وسيئاته بالكلام الكبير ونهاجر إليه بعيدا عن الفعل الواقعى الآنى والمسئول والمثابر، ونحن نتحدث عن أنفسنا بكلام كبير يعطينا تصورا أسطوريا عن قدراتنا وإنجازاتنا ونجاحاتنا ثم نكتشف عند مواجهة الواقع أننا كنا واهمين. وهناك أمثلة عديدة لهذا الداء فى حياتنا وآثاره المدمرة، نذكر منها إحساسنا بالزهو والإنتفاخ وإطلاقنا للتصريحات العنترية الفارغة قبل حرب ١٩٦٧ ثم هزيمتنا النكراء بعد ذلك، وأيضا كلامنا عن انتصاراتنا الرياضية وأغانينا عنها رغم تواضع مستوانا وإنجازاتنا فيها، وكلامنا عن مصر واحة الأمن والأمان فى الوقت الذى تعددت فيه أعمال العنف والبلطجة والإرهاب، وكلامنا عن نزاهة الإنتخابات فى الوقت الذى شهد القاصى والدانى بما حفلت به من أعمال تزوير وبلطجة ومنع الناخبين من الإدلاء بأصواتهم بواسطة حوائط عسكرية من قوات الأمن المركزى (وهذا ما شهد به القضاة الشرفاء فى تقاريرهم وتصريحاتهم). هذا الكلام الكبير يعزلنا عن الحقيقة ويخدر أحاسيسنا ويجعلنا نعيش فى وهم نصحو منه على كوارث محققة. وفى هذا يقول نزار قبانى:

مقتلنا يكمن فى لساننا
فكم دفعنا غاليا ضريبة الكلام
.....
إذا خسرنا الحرب – لا غرابة
لأننا ندخلها بكل ما يملك الشرقى من مواهب الخطابة
بالعنتريات التى ما قتلت ذبابة
لأننا ندخلها بمنطق الطبلة والربابة
.....
لقد لبسنا قشرة الحضارة
والروح جاهلية

وجهة الضبط الخارجية
(الهروب من المسئولية الشخصية
ووضع الأشياء على شماعات خارجية)

وهذه أحد السمات البارزة والمشكلة فى الشخصية المصرية حيث ترى فى أغلب الأحوال أن ما حدث هو نتيجة للحظ أو الصدفة أو القدر أو تأثير أو تقصير أشخاص آخرين، وهذا الإسقاط يريح الشخص ويجعله يشعر أنه غير مسئول عن شئ، ولكنه فى ذات الوقت يعطل نضجه ونموه ويجعل مشاكله تتراكم لأنه لا يوجد شئ يفعله طالما هو غير مسئول، ويجعل الأمور تسير على نحو غامض وضبابى فليست هناك علاقة واضحة –فى وعى المصري – بين العمل والنجاح أو بين الإجتهاد والإنجاز، لذلك حين يريد النجاح والإنجاز فهو يكتفى إما بالتوجه إلى الله بالدعاء أو التوجه إلى أشخاص ذوى نفوذ يتملقهم ويطلب رضاهم، وإذا فشل فى تحقيق أهدافه فالسبب فى ذلك يأتى من هنا أو من هناك ولكنه ليس منه وبالتالى فليس لديه شئ يفعله ليغير النتيجة غير الإنتظار حتى تتعدل الظروف أو تتحسن الأحوال. وهذاالموقف هو عكس وجهة الضبط الداخلية التى تكون لدى الشخصيات الناضجة والشعوب الناضجة التى ترى أنها مسئولة مسئولية مباشرة عن نجاحها أو فشلها وترى أن ما يحدث لها هو نتيجة لما تقوم به من أفعال، وأنها تملك السيطرة على حياتها، وأن هناك قوانين واضحة ومحددة للنجاح وللإنجاز، وأن تفكير وجهد الإنسان اليوم هو الذى يصنع الغد.

* * *

لم أصدق أن الذى يجلس أمامى الآن فى عيادتى هو هو نفس الشخص الذى سمعت عنه كثيرا وقرأت عنه أكثر فمعلوماتى أنه لا يغادر غرفته منذ عاد من العالم الخفى الذى قضى فيه عدة سنوات ضيفا على مملكة الجن – كما ذكرت أمه ونقلت الصحف – فهو متفرغ لعلاج المرضى وخاصة المرضى النفسيين، وكنا نعتبره نحن الأطباء منافسا قويا لنا بل كانت الأعداد التى تزوره أضعاف من يزوروننا، وكانت ثقة الناس فيه عالية حيث كان يختلف – فى نظرهم – عن بقية المعالجين الشعبيين أو الروحانيين، فقد كان يكتب أدوية تصرف من الصيدليات أو أعشاب تصرف منن العطار، وكانت له فترات صمت ونظرات وتصرفات غير مفهومة ولكنها مؤثرة فى من يزورونه، ومن المعروف أنه كان طالبا فى السنة الثالثة بكلية الطب وتعثر فيها عدة سنوات ثم انعزل فى غرفته عدة شهور وبعدها اختفى وذكرت أمه أنه دخل غرفته ولم يخرج منها، وبعد عدة سنوات وجدته جالسا فى غرفته ولا تعرف من أين عاد وكيف دخل الغرفة وهى مغلقة طوال فترة غيابه، إلى أن أخبرها بعد ذلك أنه عاش تلك السنوات تحت الأرض وتعلم الطب هناك على أيدى أمهر الأطباء الجان، وبدأ من وقتها يمارس الطب من غرفته. كنت شغوفا لمعرفة قصته ولكنه لم يكن قادرا على الحديث فقد كان كلامه مفككا وكان فى حالة خوف شديد ممن يعتقد أنهم يتتبعونه من مملكة الجن بسبب طلاقه لزوجته منهم، وكانت أصواتهم القوية تدوى فى أذنه وتحرمه النوم ليل نهار وانقطع عن الطعام بأوامر منهم حتى تدهورت صحته تدهورا شديدا وكاد يموت. ودار الشريط أمام عينى مسرعا فتذكرت أنه فى شهر واحد التقيت بالكثيرين من ضحايا الجن فهذه امرأة سافر زوجها منذ عشرين سنة ولا يحضر إلا شهر كل ثلاث سنوات، وربت أولادها وزوجتهم وأصبحت تعيش وحيدة، فلم يتركها الجن فى حالها وأصبحوا يتسللون إلى غرفتها كل ليلة ليواقعوها وهى بين النوم واليقظة وتستيقظ مرعوبة مما يحدث. وذاك شاب عجز عن أداء مهمته فى ليلة زفافه وكان هذا بسبب الجنية التى تزوجها منذ عدة سنوات وهو أعزب فقررت أن لا

تتركه لأحد غيرها فأصابته بالعجز حتى يعود إليها. وتذكرت تلك الأوقات فى بواكير حياتى حين كنت أتسلل إلى جلسات إخراج الجن لأرى ذلك الصراع بين الشيخ المعالج (وأحيانا القس المعالج) وبين الجنى الكافر الذى يفتك بضحيته، وكاد يفتك بى أحد المعالجين حين شك فى هويتى حين نسيت نفسى ورحت أسأل وأستفسر بطريقة فهم منها أننى من الفضوليين. وتذكرت أحد التائبين من هؤلاء المعالجين الروحانيين حين اعترف لى أن دخله فى بعض الأيام كان يصل إلى ما يوازى خمسون ألف جنيه فتحسرت على سنوات عمرى التى ضاعت.

حجم الظاهرة:

أصبح الجن يحتل مساحة كبيرة في وعي المصريين فى السنوات الأخيرة (على الرغم من الفضائيات والإنترنت)، فقد ثبت من دراسات عديدة أن ٧٠-٨٠٪ من المرضى النفسيين في المجتمع المصري يترددون على المعالجين الشعبيين، وطبقاً لتقارير المركز القومي للبحوث (سبتمبر ٢٠٠٣) فإن في مصر مليون مواطن يعتقد أنه ممسوس بالجن وثلاثمائة وخمسون ألف شخص على الأقل يعملون في مجال العلاج بإخراج الجن.

ولم يعد يقتصر الأمر على المستويات الشعبية الدنيا وإنما امتد ليشمل مستويات تعليمية عالية تصل إلى مستوى أساتذة الجامعات والمثقفين، أي أنها ظاهرة عابرة لكل المستويات الاجتماعية والتعليمية بشكل ملفت للنظر ومثير للانتباه، لدرجة أن الشيخ الغزالي رحمه الله تساءل يوماً في غضب: لماذا تركبنا العفاريت نحن فقط ولا تركب الألمان وغيرهم من الأوروبيين والأمريكان.

وقد أجرى كلاً من الباحثين المصريين د.محمد عبد العظيم و د. احمد الكتامي في المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في القاهرة دراسة ميدانية عن ظواهر الشعوذة والدجل والمعالجة بالقرآن.وقد نشرت جريدة «الشرق الأوسط» أجزاءً منها في عدديها: العدد الأول: «٢٩ نوفمبر ٢٠٠٤ العدد ٩٤٩٨» والعدد الثاني: «٢٢ مايو ٢٠٠٥ العدد ٩٦٧٢».

فَتحْتَ عنوان: «الشعوذة تدخل سوق الاستثمارات العربية من أبواب الخواء العقلي والروحي» جاء في العدد الأول هذا التقرير:

«دخلت ممارسات الدجل والشعوذة سوق الاستثمارات العربية من أبواب سرية وشديدة الخطورة. فلم تعد هذه الممارسات مقصورة على الجهلة وأنصاف المتعلمين، بل انضم إلى خيوطها عناصر من نخبنا المثقفة، وذوي المراكز المرموقة المنوط بها صنع القرار في بلادنا. وتقول احصائية حديثة إن الدول العربية تنفق أكثر من ٥ مليارات دولار سنوياً على الدجل والشعوذة. كيف نوقف هذا النزف الأعمى، الذي يتستر تحت مظلة الخرافة، والخواء العقلي والروحي، وضغوط الحياة، وما هي أبعاده النفسية والاجتماعية..»

«أشارت دراسة ميدانية حديثة قام بها د. محمد عبد العظيم بمركز البحوث الجنائية في القاهرة إلى أن ممارسي السحر يخلطون بين السحر والدين، ويزعمون أن لهم القدرة على علاج الأمراض... وأن هناك زهاء ٣٠٠ ألف شخص في مصر يدعون علاج الأمراض بتحضير الأرواح وأن ٢٥٠ ألفا أي ربع مليون دجال يمارسون أنشطة الشعوذة في عموم الدول العربية وأن العرب ينفقون زهاء ٥ مليارات دولار سنوياً على السحر والشعوذة، وأن نصف نساء العرب يعتقدن بفعل الخرافات والخزعبلات ويترددن على المشعوذين سراً وعلانية».

«وبينت الدراسة أن المصريين وحدهم ينفقون نحو عشرة مليارات جنيه سنوياً على الدجالين والمشعوذين والنصابين الذين يدعون كذباً قدرتهم على تسخير الجان وعلاج الأمراض والمشاكل الصحية والاجتماعية والاقتصادية. وأوضح الباحث المصري في دراسته أن استمرار اعتقاد الأسر بقدرة هؤلاء على حل كثير من المشاكل المستعصية خاصة الاجتماعية منها كالتأخر في الزواج، أو الصحية كعدم الإنجاب أو العقم أو فك السحر، ساهم في توفر ٣٠٠ الف شخص على الاقل يعملون في مجال الدجل والسحر في مصر».

«وتؤكد الدراسة ان حوالي ٥٠ ٪ من النساء المصريات يعتقدن بقدرة الدجالين على حل مشاكلهن، موضحة أنهن الأكثر إقبالا على هؤلاء وان الدجالين والسحرة يعمدون

إلى ممارسة هذه الخرافات بهدف جني الأموال. كما اكدت دراسة اخرى اجراها كل من الباحثين المصريين رشدي منصور ونجيب اسكندر في المركز القومي للبحوث النفسية بالقاهرة ان ٦٣ ٪ من المصريين يؤمنون بالخرافات والخزعبلات ويمثل الفنانون والسياسيون والمثقفون والرياضيون منهم نسبة ١١٪».

وبعد سبعة أشهر تقريباً نشرت «الشرق الأوسط» في العدد المشار إليه سابقاً التقرير التالي:

«دراسة: ١٠ مليارات جنيه ينفقها المصريون على أوهام الشعوذة»..... دجال لكل ٢٤٠ مواطنا.

القاهرة: «الشرق الأوسط»

«أفادت دراسة جديدة بأن المصريين ينفقون ١٠ مليارات جنيه سنوياً على الدجالين. وقالت الدراسة التي أعدها الباحث محمد عبد العظيم بمركز البحوث الاجتماعية، إن هذه المبالغ تنفق على ٣٠٠ ألف دجال في مصر، مؤكداً زيادة أعداد هؤلاء الدجالين مع تزايد الاعتقاد بالخرافات، ويأتي المتعلمون وأصحاب المستويات الثقافية الرفيعة في مقدمة المترددين على هؤلاء الدجالين، حتى إن المعدل أصبح دجالاً واحداً لكل ٢٤٠ مواطنا، باعتبار عدد السكان في البلاد يبلغ ٧٢ مليون نسمة».

«وأشارت الدراسة إلى أن ٥٠٪ من نساء مصر يؤمنّ بالدجل وقدرة المشعوذين على حل المشكلات. كذلك يؤمن بالدجل المصريون من الرجال الباحثين عن التفوق الجنسي. وتتحكم نحو ٢٧٥ خرافة في عقول المصريين، على رأسها مشكلات تأخر سن الزواج وعدم الانجاب والمشكلات الجنسية المعقدة، اضافة إلى الأمراض المستعصية. وجاءت القاهرة في موقع الصدارة من حيث عدد الدجالين أو تركزهم حيث يصل عددهم إلى نحو ١٠٠ ألف».

«وتقول الدراسة إن ٣٨ في المائة من مشاهير الفن والسياسة والرياضة والمثقفين هم من رواد السحرة والدجالين. وينساق العديد من هذه الفئات، كما أكدت الدكتورة عزة

كريم، استاذة الاجتماع بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية، لإحساسهم بنوع من الراحة النفسية، حيث يلجأون إلى هؤلاء الدجالين بعد فشلهم في العلاج. وقالت إن هذا العجز يشعر به الأغنياء والفقراء على حد سواء ويسهم في ذلك أيضاً ما وصفته الدراسة بـ«انغلاق المجتمع وتعدد مشاكله» (انتهى التقرير)

ويعمل عدد من المنتسبين إلى الدين (أو ذوى الهيئة الدينية) على ترسيخ ثقافة الجن والعفاريت لدى قطاعات واسعة من الناس، والدافع لديهم مزدوجا فمن ناحية يزداد خوف الناس ورعبهم فيلجأون إليهم كملاذ آمن وبالتالى يصبح لهم أتباعا ومريدين ولائذين وفارين، ومن ناحية أخرى تروج لديهم مهنة حماية البشر وإنقاذهم من خلال قراءة مقتطفات من النصوص المقدسة وشبه المقدسة عليهم مقابل مال أو شهرة أو جاه، ولهذا زادت جرعة الترهيب فى الخطب والمحاضرات والندوات والأشرطة، وزادت أعداد الخائفين والمرعوبين فبدلا من أن يفر الناس إلى الله فروا إلى هؤلاء النالس يحتمون بهم من عذاب النار الذى ينتظرهم مؤكدا ومن تربصات الجن المحيطة بهم.

وقفز إلى ذاكرتى نص توراتى كنت أعتبره متحيزا ضد مصر كعادة التوراة التى تعتبر بعض نصوصها منشورا سياسيا ضد مصر حيث تصفها ب «بيت العبودية» وربما يعود ذلك إلى ما عاناه شعب إسرائيل من اضطهاد أيام الفراعنة. وقد ورد فى التوراة أن إفناء مصر لن يكون جراء هجمات خارجية، وإنما عن طريق الفتن والقلاقل التى يقوم بها الرب (؟؟؟؟؟؟؟!!!!!!!)، حيث جاء فى سفر التكوين: «أهيج مصريين على مصريين فيحارب كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه، مدينة ومدينة، ومملكة مملكة، وتراق روح مصر داخلها، وتضيع مشورتها فيسأل كل واحد العرّافين والتوابع والجن، وأغلق على المصريين فى يد حاكم قاس فيتسلط عليهم» (!!!!!!).

وتروى الأساطير أن للمصريين القدماء تاريخ قديم مع الشيطان والذى كان يرمز له بإله الشر «ست»، وقد كانوا من فرط خوفهم منه يقدمون له القرابين ويتملقونه لدرجة أنهم مكنوه فى وقت من الأوقات من التغلب على إله الخير وقتله.

ثقافة الجن والظروف السياسية والاجتماعية والدينية:

ويبدو أن ظاهرة تلبس الجن أو فرط الإنشغال بالجن أو ما يسمى «ثقافة الجن» لها صلة بالظروف السياسية والاجتماعية والدينية، حيث تساهم حالة القهر النفسي والاجتماعي والسياسي في خلق الإحساس بالعجز فلا يستطيع الشخص التعبير عما بداخله في الأحوال العادية فيلجأ الجهاز النفسي إلى حالات الهستيريا الانشقاقية (ينشق جزء أو مستوى من الوعى فيتكلم بصوت مختلف أو يأتي أفعالاً غريبة على سياق شخصيته العادية) لكي يقول ما يريد ويفعل ما يريد، أو إلى الهستيريا التحولية (تتحول المعاناة النفسية إلى أعراض جسمانية عصبية) حيث يدخل فى حالة إغماء أو تشنج هستيرى وذلك للهرب من ضغوط لا يقوى على احتمالها، إضافة إلى أن ظروف المجتمع لا تسمح بنضج الكثير من الناس، بل ربما تشجع الخوف والخضوع والتعامل كأطفال أمام كل رموز السلطة من آباء ومعلمين ومديرين وأزواج وحكام، وحين تتعرض هذه الشخصيات الهشة غير الناضجة لأي ضغوط فهي تلجأ إلى الأعراض الهستيرية الانشقاقية أو التحولية تحتمي بها وتجذب بها الانتباه وتستجدي من خلالها العطف والاهتمام، ودائما تعزو كل شيء لعوامل خارجية لا سلطان لها عليها، وبالتالي فهي ليست مسئولة عن أي شيء، وإذا كان ثمة علاج فهو يوجه إلى القوى الغيبية المسيطرة دون تدخل من المريض في أي شيء. وهذا يسمى فى علم النفس «وجهة الضبط الخارجية حيث يربط الإنسان ما يحدث له بالحظ أو بالصدفة أو بتأثير أشخاص آخرين ولا يرى نفسه مسئولا عن شئ أو قادرا على تغيير شئ فى محيط حياته، وهو بالتالى ينتظر الحل من خارجه سواء من الظروف أو من الناس.

فقوى الجن هنا تمثل رمزياً في العقل الباطن الشخصي وفي الوعي الجمعي كل قوى القهر والتسلط والإذلال الخارجية والداخلية، فهي ليست بعيدة عن التسلط الأمريكي والإذلال العالمي للمسلمين والعرب والمصريين في كل مناسبة وكل محفل، وليست بعيدة عن أجواء التحكم والاستبداد بالرأي على كل المستويات الداخلية، فالشخص (والمجتمع) المصري يشعر في النهاية أنه مفعول به طول الوقت وأنه عاجز عن المواجهة،

ولكي يعفي نفسه من هذا الموقف المهين يقوم بعمل إزاحة لكل هذه المعاني إلى قوى خفية يعتقد اعتقاداً جازماً أنها توجه حياته وتؤثر فيها وأنه لا حول له ولا قوة تجاهها. وحتى في حالة بحثه عن علاج من تأثير الجن لا يقوم هو بأي جهد إيجابي بل كل المطلوب منه أن ينام على ظهره أو جنبه أو بطنه (حسب مزاج الشيخ المعالج وذوقه) ويقوم المعالج (الشيخ أو القس) بتلاوة نصوص دينية أو شبه دينية حتى يطرد الجن من جسده، وإذا لم يخرج بهذه الطريقة فلا مفر من الضرب بالعصى على هذا الجسد السلبي المستسلم المتخاذل حتى يخرج الجني الذي يركبه. ويساعدنا على هذا الفهم ما نسمعه كثيراً من أن الجن الذي ركب الشخص المصري أو العربي أو المسلم هو جن كافر، وكأن الكفار الإنس والجن على السواء يمارسون قهراً وتسلطاً وإيذاءاً لا نملك دفعه إلا بوسائل خارقة.

وهذه هي نفس الظروف التي تبنى فيها ابن تيمية فكرة تلبس الجن للبشر حيث كان يعيش في عصر طغى فيه التتار (الكفار) على الأمة الإسلامية وأصاب الناس شيء ضخم من الإحباط واليأس والقنوط بأن الأمة لن تخرج من هذا المأزق الذي هي فيه إلا بتحميل الغيبيات مسئولية الواقع المؤسف الذي حدث للمسلمين. وقد وردت روايات عن إخراج الجن على يد ابن تيمية كما ذكر ابن القيم في الطب النبوي صفحة ٧٦٨، وهذه الروايات اعتمدت على اجتهادات خاصة من ابن تيمية، وقد أيده فيها سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله – مفتي السعودية والذي قال:» قد دل كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة على جواز دخول الجني بالإنسي وصرعه إياه، فكيف يجوز لمن ينتسب إلى العلم أن ينكر ذلك بغير علم ولا هدى؟ «. وعلى هذا الرأي يرد الدكتور جمال أبو حسان (أستاذ التفسير في جامعة الزرقاء الأهلية بالأردن) بقوله:» هذا القول الذي قاله الشيخ ابن باز ليس إلا ترديداً حرفياً لما نقل عن الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – رحمهما الله – وأنا أقول أنه من أسباب انتشار هذه الظاهرة ثقة الناس بكتب الشيخ ابن تيمية، فهو الذي نشر هذه الفكرة بعد أن سيطر عليه الاعتقاد بصوابها من كثرة ما أشيع بين الناس من وجود هذه الظاهرة، فصدقها، كما أن ابن تيمية – رحمه الله – ليس معصوماً، فالعصمة لم يجعلها الله تعالى إلا للأنبياء، وهذا الرجل الحقيقة انتشرت هذه

القضية في عصره، وكان بعض الصالحين يأتي إليه ويقول إنا نفعل كذا وكذا وكان يصدقهم فتحولت هذه القضية في زمان ابن تيمية من موروثات شعبية إلى قضية دينية صار الناس يحاكم بعضهم بعضاً بناءاً عليها. الأمر الثاني: قول الشيخ ابن باز أن هناك إجماع.. ليس إجماع.. أنا والله ما أعرف أن المسلمين اجتمعوا وبحثوا هذه المسألة في مؤتمر علمي عام واتفقوا على حدوث هذه القضية» (المرض النفسي بين الجن والسحر والحسد – الجمعية الإسلامية العالمية للصحة النفسية ٢٠٠٤م-١٤٢٥هـ).

وقد حاول ابن القيم – تلميذ ابن تيمية – رحمهما الله، أن يكون أكثر تخصصاً في هذه المسألة حتى لا يعزوها كلها إلى الشياطين، فقال في كتابه «الطب النبوي» صفحة ٦٦: «الصرع صرعان: صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة، والثاني هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجه». ولكن ابن القيم لم يذكر كيفية التفريق بين نوعي الصرع، وربما له العذر في ذلك فقد كان لرأي ابن تيمية عن تلبس الجني للإنسي وصرعه قبولاً واسعاً، كما أنه لم توجد في عصره أي وسائل تشخيصية تبين ما وراء الصرع من أسباب بيولوجية أو نفسية، ولكن يكفيه فضلاً وفخراً أنه استطاع أن يخفف من أثر تعميم رأي ابن تيمية حيال الصرع وأن يقول أن ثمة نوعين مختلفين منه يصيبان الإنسان. وقد اتضحت الصورة طبياً بعد ذلك وخاصة بعد اكتشاف رسام المخ الكهربائي وبعد التقدم الهائل في العلوم العصبية والنفسية فتبين أن هناك نوعين من النوبات بشكل عام أحدهما تنتسب للصرع الناشىء عن اضطراب النشاط الكهربي في المخ والآخر ينشأ عن اضطراب نفسي يسمى الهستيريا التحولية أو الانشقاقية، وأن لكل نوع من هذه الأنواع علاجات متخصصة بناءاً على أبحاث علمية موثقة.

ويحاول بعض المدافعين عن قضية تلبس الجن للبشر تقوية موقفهم أكثر بإرجاع هذا الأمر إلى حديث للرسول ﷺ، فقد جاء في حديث ليعلي بن مرة عن النبي ﷺ أنه أتته امرأة بابن لها قد أصاب لمم فقال له النبي ﷺ: «**أخرج عدو الله أنا رسول الله**». قال: فبرأ (أخرجه الإمام أحمد ٤/ ١٧٠، ١٧١، ١٧٢).

هذا الحديث بنى عليه كثير من المشتغلين بإخراج الجن ممارساتهم على أساس أن

الرسول ﷺ قد فعل ذلك. وعن هذا الحديث يقول الدكتور / جمال أبو حسان: «هذا حديث منكر روى من عدة طرق مختلفة ليس فيها ولا طريق واحد صواب.. كلها من رواية المجهولين، من رواية الضعفاء، من رواية المنكرين، ليس فيها ولا طريق واحد سلم من النقص.. هذا حديث المرأة والصبي ليس في رواياته ولا رواية واحدة تصلح مستنداً لهذا الذي يقول عنه الناس» (عن كتاب المرض النفسي بين الجن والسحر والحسد.. الجمعية الإسلامية العالمية للصحة النفسية).

ولم يثبت عن الرسول ﷺ أنه عالج الصبي بالضرب أو الخنق (في الحديث المذكور)، وإنما ثبت العلاج بالضرب عن ابن تيمية فقط كما ذكر ابن القيم. ولم يثبت في التاريخ الإسلامي أن عرب الجزيرة توافدوا بالمئات أو الآلاف طلباً للعلاج بالرقيا على يد رسول الله ﷺ أو صحابته الكرام، وإنما كانوا يتوافدون لمعرفة الإسلام كدين ينظم حياتهم الدنيوية والأخروية.

أما في عصور التدهور الحضاري والاستبداد السياسي والتخلف الاجتماعي فقد تمادى الكثيرون ممن يعلمون وممن لا يعلمون في هذا الأمر فاعتبروا كل الأمراض تلبس جن واعتبروا أنفع الوسائل هي الضرب المبرح أو الخنق أو الكي أو إيذاء المريض بحجة إيذاء الجن الذي يتلبسه، وقد حدثت مآس كثيرة نقابلها كل يوم وأدت في بعض الأحيان إلى وفاة بعض المرضى تحت وطأة الضرب لإخراج الجني الكافر الذي ركبه، إضافة إلى انتهاك حرمات الكثير من النساء وهتك أعراضهن وابتزازهن على أيدي مدعي إخراج الجن أو العلاج بالقرآن.

ومما استعرضناه نفهم كيف تنشأ الظواهر حين تختلط الثقافة الشعبية بالتفسيرات الدينية خاصة إذا وردت على ألسنة علماء مشهود لهم بالورع والأمانة ومع هذا فليس مقطوع لهم بالعصمة والإصابة في كل ما يقولونه. وعلى الرغم مما أثبته العلم الحديث من معرفة بأسباب الصرع وأسباب النوبات الهستيرية ودوافعها وطرق علاجها إلا أنه يصعب على كثير من محبي ابن تيمية أن يخالفوه فيما ذهب إليه أو يخالفوا الشيخ ابن باز فيما قرره، وهذا أمر يحتاج للكثير من المراجعات الفكرية والمنهجية، فعلى الرغم من المصداقية

العالية التي يتمتع بها هؤلاء العلماء الأفاضل (وهم جديرون بها فعلا) إلا أنه لم يقل أحد بعصمتهم ولم يقولوا هم أنفسهم بذلك، وما قالوه كان اجتهاداً في مسألة ليست من أصول الدين الثابتة وإنما هي من الأمور القابلة لإعادة الرؤية، ومن الأمور التى تحتاج لرأى الأطباء فيها فهم أهل الخبرة والتخصص.

ويكاد يكون الوضع السياسى والإجتماعى الذى عاشه ابن تيمية وترعرعت فيه فكرة تلبس الجن للإنس مشابهة للوضع الذى نعيشه فهو وضع الهزيمة والإنكسار والخضوع لقوى عالمية ظالمة، فوقتها كانت الهجمة التترية والآن الهجمة الأمريكية، وفى الحالتين شعوب ضعيفة خائفة ومكسورة ومهزومة داخليا وخارجيا.

الدوافع النفسية وثقافة الجن:

قد أدت الاكتشافات الطبية الكبيرة في مجال أمراض المخ والأعصاب والأمراض النفسية (تلك الاكتشافات القائمة على دقة الملاحظة والجهد والمثابرة) إلى كشف الكثير من الغموض المحيط بظواهر بالغ في تفسيرها كثير من الناس على أنها سيطرة للجن على بني البشر، وكان من أكثر الحالات إثارة للجدل حالات الهستيريا وهي الحالات المسئولة عن هذا التشوش فقد استغلها المعالجون الشعبيون لإثبات صحة عملهم وفاعليته، وهذه الحالات تصيب الشخصيات غير الناضجة انفعالياً والقابلة للإيحاء في نفس الوقت (وما أكثرها في ظروف مجتمع يعطل النضج ويزيف الوعي ويعاني القهر والمذلة من الخارج والداخل) فيحدث أنه في مواجهة ضغوط معينة كعدم قدرة الطالب أو عدم رغبته في إكمال الدراسة أو عدم تكيف زوجة مع زوجها مع ضغط أهلها لاستمرارها بأي شكل، أو عدم قدرة موظف على تحمل ضغوط العمل أو ظروف الفقر أو ضغط رؤسائه وقهرهم، في مثل هذه الظروف يحدث انشقاق في أحد مستويات الوعي فيتكلم الشخص كلاماً غريباً عما ألفناه منه ويتصرف تصرفات غريبة عليه وعلينا، أو يحدث تحول لمعاناته النفسية أو الاجتماعية في صورة إغماء أو فقد للوعي وهي محاولة للهرب من واقع ضاغط لا يستطيع صاحب الشخصية الهشة أو غير الناضجة احتماله أو مواجهته أو تغييره. فالعرض الانشقاقي هنا يجعل الشخص يتحدث بما لا يستطيع أن ينطق به وهو في كامل

وعيه والعرض التحولي يسمح للشخص بالهروب من الواقع الضاغط بأكمله، وفي الحالتين يحدث نوع من التعمية على المشكلات الحقيقية للشخص فلا يراها – أو لا يريد أن يراها – ولا يراها الآخرون (أو لا يريدون أن يروها)، وتأتي محاولات العلاج الشعبية أو شبه الدينية لتضع غطاءاً آخر من التعمية على الموضوع فتهرب من الرؤية الواقعية لمشكلات الشخص وصعوباته وظروفه وتلجأ إلى تفسيرات غيبية وتعزو الأمر لقوى الجن والشياطين وتستخدم وسائل لا تحتاج لمواجهة أو تغيير سواء من المعالج (بكسر اللام) أو المعالج (بفتح اللام).

وفي هذه الممارسات الشعبية تسود الإيحاءات من جانب المعالج ويتفاعل معها المريض أو الشخص «الملبوس» أو «المركوب» بالجني وتحدث دراما تكون أحياناً مبهرة للعامة حيث يرون معركة مقدسة تدور بين شيخ يقرأ متفرقات من نصوص مقدسة ومعه عصا يواجه بها جني كافر يقهر شخصاً ضعيفاً، وبالطبع لابد أن تنتهي هذه الدراما بانتصار الشيخ (أو القس) على الكفار حتى ولو أدى ذلك إلى موت المريض تحت وطأة الضرب.

وأحياناً يفيق الشخص «المركوب» أو «الملبوس» من انشقاقه الهروبي بسرعة تبهر الناس وتزيد من ثقتهم بهذا المعالج «الفحل»، ولكن الأعراض ما تلبث أن تعود عند أول ضغط نفسي أو اجتماعي لأن المعالج لم يبحث عن الأسباب وإنما عالج العرض الموجود فقط في جو من الغموض، وأحياناً يحدث أن يتمادى المريض في أعراضه ويطورها بعدما سمع ورأى من إيحاءات عن تلبس الجن له وتزداد الأمور تعقيداً، وهنا يعود أهل المريض إلى المعالج الذي يبتزهم تحت وهم تأثير الجن. وقد أراد بعضهم أن يوسع تأثيره على الناس فسجل أشرطة تبين كيف يخرج الجن من المرضى، وانتشرت هذه الأشرطة وسببت فزعاً لكن من سمعها، وجاءوا للعلاج من تأثيرها، وقد قدر لي- كما ذكرت - أن أسمع عدداً من هذه الأشرطة وأن أحضر جلسات لإخراج الجن بالقراءة فما وجدت غير حالات هستيرية كالتي سبق وصفها تتحدث وتتصرف تحت تأثير إيحاءات المعالج الشعبي أو المعالج شبه الديني.

قد يقول قائل: ولماذا لا يذهب الناس إلى الأطباء والمعالجين النفسيين المتخصصين، والجواب أن هناك ثلاث مشكلات تعوق هذا التوجه: المشكلة الأولى تخص تركيبة الناس النفسية والاجتماعية، تلك التركيبة التي لا تقبل ولا تتحمل منهجية العلاج النفسي الحديث الساعية والداعية إلى إيقاظ الوعي والإرادة وتحمل المسئولية الشخصية عما يحدث وتبني المواقف الإيجابية تجاه أحوال الشخص وأحوال المجتمع والسعي نحو تغيير الظروف للأفضل بالسعي والعمل والمثابرة، والسعى نحو المعرفة والنمو والتطور واكتساب المهارات الحياتية ومهارات التكيف مع الناس وإيقاظ ملكات الإبداع.... إلخ. هذه القيم لا يتحملها وعي كثير من طالبي العلاج فى المجتمع المصرى والعربى أو حتى أقاربهم والمحيطين بهم وهم يفضلون عليها طريقة العلاج بالقراءة أو العلاج بإخراج الجن أو فك السحر حيث لا تتطلب منهم هذه الوسائل أي شيء يقومون به. والمشكلة الثانية: وهي تخص الأطباء والمعالجين النفسيين، وهي ميل بعضهم إلى العلاج الكيميائي في كل الأوقات والحالات وإهمال العلاج النفسي، أو محاولات العلاج النفسي بمفاهيم غريبة على الثقافة الأصلية للناس، وهذا يجعل المعالج غريباً على من يعالجه ويجعل وسائله وتدخلاته العلاجية أشد غرابة. وهذا يستدعي من الطبيب النفسي والمعالج النفسي محاولة الاقتراب من ثقافة المجتمع وتركيبته النفسية وتطويع الوسائل العلاجية التي تم تطبيقها وتطويرها في مجتمعات مختلفة لكي تناسب البيئة التي يعيش فيها دون إخلال بقيمتها العلمية والعلاجية، وعلى سبيل المثال نجد كثير من التقنيات العلاجية النفسية الشائعة في المجتمعات الغربية تقوم أساساً على المنطق العقلي الصرف وعلى اعتبار معطيات الحياة الدنيا دون غيرها، وهذا يصطدم كثيراً مع التركيبة النفسية العربية والإسلامية والتي تولي أمورها الروحية وأمور الآخرة أهمية كبيرة ولا يمكن علاجها بعيداً عنها وعن تأثيراتها في تصوراتها ومشاعرها وسلوكياتها. المشكلة الثالثة: وهى الوصمة المحيطة بالمرض النفسى والعلاج النفسى، تلك الوصمة التى تجعل الناس تفضل المعالج الشعبى أو الدينى على الطبيب النفسى.

إذن فنحن أمام أعداد كبية من المكبوتين والمحبطين والمهزومين والمقهورين والمرضى

النفسيين تتجسد مشكلاتهم النفسية والإجتماعية فى صورة أعراض تعويضية تعوضهم الكبت أو الحرمان أو الفشل وتأخذ شكل قصص درامية عن الجن والعفاريت، فالطالب الذى فشل فى إكمال دراسته الطبية يمرض نفسيا ويتبنى ضلالات تعويضية تجعله طبيبا مشهورا تلقى العلم على يد العفاريت الزرق، والمرأة التى غاب عنها زوجها طيلة حياتها وهجرها أبناؤها تعوض وحدتها وحرمانها وكبتها بجن يؤنسون وحدتها ويلبون احتياجاتها الغريزية دون حرج شرعى، والشاب الذى عجز عن الزواج لفترة طويلة جسد اشتياقه فى جنيّة ترافقه وتعود على العلاقة بها لكى يفشل عند زواجه بإنسية، أو هو اختلق تلك الحكاية ليبرر بها عجزه عن أداء مهمته.

ولما كانت ثمة علاقة تاريخية بين الظلام وحركة الجن والشياطين فإن حياة الشعوب حين تفتقد إلى المصداقية والشفافية تفتقد إلى النور وتصبح حياتها مسكونة بالمخاوف والتخيلات المرعبة والتى تتجسد فى النهاية فى صورة جنى أو شيطان يتربص بنا، والظلام هنا يعنى الظلمة المعروفة فى الليل والأماكن المغلقة المعتمة، ويعنى أيضا ظلمة العقل بانعدام أو نقص المعرفة الحقيقية، ولهذا نجد أن ثمة تناسب طردى بين الظلام بمعنييه السابقين وبين كثرة الحديث عن الجن والعفاريت، وبما أن الظلمة بعناها الأول قد تقلصت كثيرا بعد انتشار الكهرباء فى كل مكان، إذن يبقى لدينا ظلمة العقل لنقص العلم فيه أو انعدام الشفافية فى الحياة الخاصة والعامة.

والخوف المبالغ فيه من الجن لدى المصريين ربما يعكس حالة من الخوف العام المخبوء فى الطبقات الأعمق من الوعى وهو خوف متعدد الأسباب ربما يكون خوفا من الظلم أو من القهر أو من الحاكم المستبد أو من الموت أو من الفشل أو من الضياع، وفى النهاية يتجسد هذا الخوف ويتوجه ناحية رمز متجذر فى الثقافة الشعبية أو الدينية فى صورة «الغولة» أو «الجن».

وفى تصور الجن والشياطين (وهم مردة الجن) فرصة لدى الناس لإزاحة كل شرورهم على كائن خارجى مستتر، أو إسقاط تلك الشرور عليه واتهامه بكل الصفات السيئة التى تثقل نفوس البشر، وبهذا تستريح تلك النفوس بعد أن ألقت بكل أدرانها على

هذا الكيان «الآخر الشيطانى»، فالشيطان هنا يستخدم كمستودع لكل خبائث وفواحش البشر وشرورهم يسقطونها أو يزيحونها من أنفسهم إليه، وهذا يفسر اهتمام الناس بالجن والشياطين حين تفسد أحوالهم وذممهم وضمائرهم. وحين يشعر المصريون بكثرة الفساد وتغلغله وتوحشه، وانتصار قوى الشر على المستوى الدولى والمحلى، فإنهم يستدعون من اللاوعى الجمعى رموز الشر الممثلة فى الشياطين ويتخيلونها تملأ عليهم حياتهم وتهدد وجودهم فينشغلون بها انشغالا وسواسيا، ويجدون فى الثقافة الشعبية والروايات الدينية الضعيفة أو المحرفة رصيدا هائلا يمدهم بتصورات عن هذه المخلوقات الشريرة الخبيثة التى تختبئ فى جوانب حياتهم وتهدد أمنهم واستقرارهم. وربما يفسر لنا هذا ندرة الكلام عن الجن والشياطين فى المجتمعات المتطورة والمستقرة والتى تمتعت بالشفافية والعدل والأمن، مقارنة بالمجتمعات التى مازالت تعيش فى ظلمات الجهل والقهر والفساد والإستبداد.

وفكرة الجن وتأثيرهم علينا تقدم لنا تبريرات لمشاكلنا ومصائبنا ومعاناتنا وفشلنا وتبعدنا عن التفكير الجاد فى كل ذلك وتعفينا من مواجهة حقيقتنا التى لا تسر وحياتنا المليئة بالمتناقضات، وتأتى العلاجات السحرية بالقراءة أو بالأحجبة أو غيرها لتكمل وتؤكد هذه الصورة البائسة، ولهذا تعودت العقول على الإستسهال والتعلق بالحلول السحرية الكاذبة والخادعة وتعودت اللجوء إلى العالمين ببواطن الأمور لإلقاء الأحمال والمشاكل والهموم بين أيديهم وانتظار الفرج يأتى من عندهم، وهكذا تفتك ثقافة الجن وثقافة الإستسهال وثقافة الإعتماد السلبى بكل ماتبقى لدينا من مقومات الحياة الشريفة الصادقة.

بين وجود الشيء وإدراكه :

هذا الكون الذي نعيش فيه يموج بالكثير من الكائنات والقوى والعوالم بعضها نستطيع إدراكه بحواسنا ووسائل إدراكنا المتاحة وبعضها الآخر نعجز عن إدراكه، وهناك فرق بين وجود الشيء و إدراكه ففي زمن مضى لم نكن ندرك وجود الميكروبات أو الفيروسات ومع ذلك كانت موجودة وتؤثر في حياتنا في صورة أمراض نشعر بأعراضها

مثل ارتفاع الحرارة والألم وغيره. هذا على مستوى الرؤية الميكروسكوبية الدقيقة، فإذا انتقلنا إلى مستوى الرؤية التلسكوبية عرفنا أننا أيضاً في الماضي كنا نجهل الكثير عن الكواكب والنجوم لأننا لم نكن نملك وسائل إدراكها، وحين امتلكنا تلك الوسائل رأينا وأدركنا ما تسمح به هذه الوسائل وتيقنا أن هناك عوالم أخرى أكثر وأكثر لا نستطيع إدراكها بوسائلنا الحالية. هذه الحقيقة نذكرها لمن يتورطون في مسألة إنكار وجود الجن وهم فريقان: فريق ينكر كل الغيبيات ومنها الجن ولا يؤمن إلا بالمحسوسات وهذا الفريق أقرب لإنكار الأديان حيث تقوم كلها على الإيمان بالغيب، والفريق الثاني ينكر ما أحاط بالجن من معتقدات وأوهام شعبية وربما يمتد إنكاره للجن أنفسهم كي يقطع الطريق أمام هذا الكم الهائل من الخرافات والشعوذات.

وكما بالغ العامة في قدرة الجن وقوتهم وتأثيرهم في حياتهم أنكر بعض العلماء والمثقفين وجود الجن بالكلية، وهذا موقفان متطرفان مستقطبان، فالجن حقيقة شوهتها الشعوذة، وهي حقيقة دينية ثبتت بالوحي ثبوتاً قطعياً، ونفيها يخالف الحقيقة الإدراكية والمنهجية العلمية التي تحدثنا عنها آنفاً، فليس كل ما لا أراه بعيني غير موجود، فالثابت علمياً أن تغيير وحدة الحجم أو وحدة الزمن يجعلنا ندرك أشياء وكائنات لم نكن ندركها بوحدات قياسنا وإدراكنا المعتادة.

النص الديني والجن:

بعض العلماء وقلة من المثقفين يتنكرون لوجود الجن، وهنا يتهمهم المتحمسون للجن بالكفر والإلحاد حيث ينكرون خلقاً لله ورد ذكرهم في الآيات والأحاديث، بل إن هناك سورة كاملة في القرآن هي سورة الجن، والأديان كلها تتحدث عن عوالم الجن والملائكة والعرش والكرسي والجنة والنار، هذه أشياء غيبية لا نملك وسائل إدراك لإثباتها، ولكننا نؤمن بها لإيماننا بمصدرها وهو الوحي الإلهي الذي تنزل على رسله.

إذن فالنصوص الدينية تؤكد على وجود قوى خير ممثلة في الملائكة لها تأثير في حياتنا على الرغم من عدم إدراكنا إياها، وقوى شر ممثلة في الشياطين وهم مردة الجن، وهناك كما ذكرنا سورة كاملة في القرآن الكريم عن الجن تبين طبيعة خلقهم ووظيفتهم والقوانين

التي تحكمهم، ومن ضمن هذه القوانين أنهم يروننا ولا نراهم ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف ٢٧]، إضافة إلى قدرتهم الهائلة على الحركة والتأثير والتي تفوق قدرة الإنسان، ومن هنا جاء خوف الإنسان من هذه القوة الخفية التي يمكنها أن تؤثر فيه أو عليه دون أن يراها أو يملك وسيلة لدفعها، هذا الخوف أحاط موضوع الجن بالكثير من الحكايات والأساطير. وقد استغل الدجالون والمشعوذون هذا الخوف ولعبوا عليه وضخموه في عقول العامة وأقاموا على أساسه ركاماً هائلاً من المعتقدات والممارسات الأسطورية والسحرية جعلت لهم سلطاناً على عقول وقلوب الدهماء خاصة في المجتمعات المتخلفة غير الناضجة. ولكي يستمر سلطانهم وسيطرتهم فهم يحيطون أفكارهم وممارساتهم ببعض التصورات شبه الدينية لكي يحتموا بها ويزيد تأثيرهم في الناس. وللأسف الشديد لم يعد تأثيرهم يقتصر على العامة كما تعودنا، وإنما استطاعوا ببراعتهم وخداعهم واستخدامهم لبعض النصوص والرموز الدينية (في غير محلها وعلى غير معناها) أن يغزوا عقول المتعلمين والمثقفين فأصبح من روادهم عدد لا بأس به من حملة الدكتوراه وبعض أصحاب الرأي والفكر بشكل يدعو للدهشة والاستغراب، فهؤلاء كان يتوقع أن يكون لديهم ملكة التفكير النقدي الموضوعي الذي يحول دون تسرب فيروسات الخرافة والأساطير حتى ولو تسترت خلف كلمات أو آراء شبه دينية أو أحاطت نفسها بتفسيرات أو تأويلات بعض علماء الدين في عصور مضت.

ونحن في مثل هذه الأمور الغيبية أمام ثلاث مستويات للتعامل مع النص الديني وهي:

١ - **النص الديني نفسه:** فإذا راجعنا سورة الجن، وراجعنا الأحاديث الصحيحة للرسول ﷺ حول مسألة الجن نجد أن هذه النصوص كانت محددة وموضوعية وكانت بمثابة تحرير للعقل من كل الخرافات والأوهام والأساطير الشعبية والتاريخية التي لوثت حقيقة الجن. وأن النص الديني الصحيح ينقي العقول من تصور أن الجن قادرين على كل شيء وأنهم يتحكمون في مصائر البشر بما لديهم من قدرات مختلفة، وأثبت النص الديني أن الجن من خلق الله منهم المؤمن والكافر وأنهم يتبعون قوانين مختلفة عن تلك التي

يتبعها البشر، وأنهم لا يضرون أحداً ولا ينفعونه إلا بإذن الله (شأن كل القوى في هذا الكون)، وأن الاعتقاد في مطلق قوتهم وقدرتهم وأن الخوف الزائد منهم يعتبر قدحاً في العقيدة الصحيحة، تلك العقيدة التي تقوم على إفراد الألوهية والربوبية والقدرة لله وحده سبحانه وتعالى وأنه مالك الملك، النافع والضار طبقاً لمشيئته العليا، وأن باقي خلقه لا يملكون ضراً ولا نفعاً إلا بإذنه وفي إطار مشيئته.

٢- **تفسير النص الديني:** والتفسير هنا عمل بشري وجهد عقلي يمكن أن يصيب ويخطئ، ولذلك فتفسير النص ليس مقدساً، بل هو قابل للمناقشة والرد مهما يكن صاحب هذا التفسير. والمشكلة أن محبة وتقدير الناس لبعض العلماء وخاصة علماء السلف يجعلهم غير قادرين على مناقشة بعض آرائهم وخاصة إذا تبين مع تقدم العلوم وتوسع المعارف خطأ بعض اجتهاداتهم وكأنهم يقدسون هؤلاء الأشخاص أو يقدسون آراءهم.

٣- **الممارسات المبنية على تفسير النص:** فكثير من العامة والدجالين والمشعوذين يقومون بممارسات خرافية يستندون فيها إلى فهمهم الخاص لتفسيرات بعض النصوص الدينية أو أقوال أو أفعال بعض العلماء المعروفين وغير المعروفين، وهذه الممارسات ربما يعتبرها بعض المنتمين إلى الدين جزءاً من الدين وربما يدافعون عنها ويضعون عليها قداسة لا تستحقها لا لشيء إلا لأنها تكتسي بثوب ديني أو تنتسب لتفسير شيخ يجلونه.

هذه المستويات الثلاثة تستدعي اليقظة في التعامل مع الحقائق الدينية فالنص الديني هو وحده الذي يتمتع بالقداسة في حالة ثبوت صحته، أما غير ذلك من التفسيرات والتأويلات والممارسات فهي جهد بشري يحتمل الصواب والخطأ وهو قابل للرؤية والمناقشة وإعادة النظر.

فالإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – كان يأتيه بعض المرضى وقد فقدوا وعيهم فكان باجتهاده يضربهم بحذائه حتى يفيقوا، فلما كثر المصابون بحالات الإغماء هذه (وغالباً كانت من النوع الهستيري الذي تحدثنا عنه) لم يشأ الإمام أحمد أن يضيع وقته الثمين

ويصرفه عن العلم بممارسة هذا العمل فأصبح يرسل حذاءه مع أحد الناس يضرب به هؤلاء الهاربين من ساحة الوعي، ولعلها كانت بصيرة نافذة لهذا العالم الفذ، فقد أصبح العلم الحديث يستخدم مع هذه الحالات ما يسمى بالعلاج التنفيري (Aversion Therapy) وهو يقوم على إحداث تنبيه مؤلم لمثل تلك الحالات حتى لا تستمرئ الهروب المرضي في مواجهة أي ضغط، وحين جاء ابن تيمية – رحمه الله – وقنن لموضوع الضرب بناءاً على تصور التلبس الشيطاني فإن ذلك كان اجتهاداً منه نظراً لكثرة الحالات التي رآها في تلك الأيام حيث لم يكن هناك تفسيراً آخر متاحاً في ذلك الزمن.

ومن العيب علينا أن نفسر تلك الظواهر تفسيراً شيطانياً في الوقت الذي ترى فيه أعيننا النشاط الكهربي المضطرب للمخ في حالات الصرع أو ترى عقولنا العمليات النفسية التي تفسر محاولات المهزومين والمستضعفين وغير الناضجين اللجوء لوسائل دفاعية نفسية مرضية تتيح لهم التعبير الضعيف المنسحب عن معاناتهم وعن قهرهم وهزيمتهم النفسية.

التحرر: إيمان صادق وعمل صالح:

إن من حكمة الله في الكون أن تكون هناك قوى خفية لا ندركها ومع ذلك يمكن أن يكون لها تأثير على الإنسان بشكل لا نعلم كيفيته، وهذا التأثير لا يحدث إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى، ومادام الأمر كذلك كان من المنطقي أن نلجأ إلى الله تعالى مباشرة ودون وسطاء للاستعاذة به من تأثير هذه القوى الخفية، وهو سبحانه قد حثنا على ذلك في سورتي الفلق والناس (المعوذتين)، ولكن الذي حدث عند كثير من الناس أنهم حين اعتقدوا في وجود هذه القوى بالغوا في تأثيرها واستقر في وعيهم خوف هائل منها وراحوا يطلبون العون عليها من العرافين والمنجمين وضاربي الرمل والودع وقارئي الفنجان، وبعض الناس عبدوا الجن حين تخيلوا أنهم مطلقي القدرة وأن بيدهم النفع والضر، فحدث انحراف في التصور والاعتقاد واللجوء إلى غير الله وإضفاء قدرة وربما قداسة على هذه القوى الخفية ومن يظنون أنهم يدفعون تأثيرها. ولما كان هذا أمر يمس صلب العقيدة لذلك جاءت النصوص الدينية الصريحة تصحح الاتجاه وتأخذ بيد الناس

نحو الله الذي يملك كل شيء ولا يخرج شيء في الكون عن مشيئته. يقول تعالى مؤكدا مطلق قدرته وقيوميته: ﴿**اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وعن عائشة رضى الله عنها قالت: سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان، فقال: «**ليسوا بشيء**»، فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثونا أحياناً بشيء فيكون حقاً، فقال رسول الله ﷺ: «**تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة**» (متفق عليه). وعن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ ورضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**» (رواه مسلم). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**» (رواه أبو داوود بإسناد صحيح).

وإذا كان تحرر العقل من الأوهام ضرورة حيث لا يستقر الدين في عقل مليء بالخرافات، فإن تحرر الإرادة بالعمل الحقيقي المثابر ضرورة أيضاً لأن الحياة لا تقوم على أماني الضعفاء والمهزومين وإنما تقوم على سواعد الأقوياء الصادقين.

* * *

سمات المنحدر

تسير الشخصية المصرية على منحدر فى بعض من سماتها حيث يبدأ المنحدر فى أعلاه بصفة إيجابية ثم يتدرج إلى أن يصل إلى صفة سلبية، وفيما يلى بعض الأمثلة

١ – من التسامح إلى التساهل إلى التسيب :

الشخصية المصرية بطبيعتها الزراعية تميل إلى التسامح، ففى البيئة الزراعية لاتوجد حاجة للإنضباط الصارم فالأخطاء لاتؤدى لكوارث بل يمكن تلافى آثارها دائما. يضاف إلى ذلك الطبيعة الدينية للمصريين والتى تدعو غالبا إلى التسامح، كما أن الإرتباطات الأسرية والإجتماعية القوية تشجع دائما على التسامح خاصة مع الأهل والأصدقاء والجيران وغيرهم. وفى ظروف معينة نجد هذه الصفة الإيجابية – وهى التسامح – تتحول تدريجيا إلى حالة من التساهل مع الآخرين فى ظروف العمل أو فى الأخطاء التى يرتكبونها، فهناك ميل دائما للعفو والتساهل، وهذا الميل يصل فى النهاية إلى حالة من التسيب تترك آثارا سيئة على الإنضباط والإلتزام المطلوب لنجاح أى عمل.

٢ – من الكرم إلى الإسراف إلى البذخ إلى السفه :

ربما تكون وفرة الطعام فى مراحل معينة من تاريخ المصريين قد خلقت لديهم صفة الكرم فالنهر بما يفيض به من خيرات يعطى حالة من الطمأنينة للناس تشجعهم على الإنفاق دون خوف. ورغم تغير الأحوال بالنسبة لجموع المصريين وحالة الشح التى يعيشها أغلبهم إلا أن صفة الكرم مازالت موجودة، وقد تتحول عند البعض إلى حالة من البذخ والسفه، فنجد أنه رغم الظروف الإقتصادية الصعبة ينفق الناس بسفه فى الأفراح والحفلات، ويكلفون أنفسهم مالايطيقون وربما يستدينون فى سبيل الظهور بمظهر الأثرياء، ويطلق المصريون على هذا أوصاف مثل: «العنطزة»... و «الفشخرة»..... و «الأنزحه»، ولديهم أمثلة شعبية دالة على ذلك مثل: «الصيت ولا الغنى»..... «من بره هلا هلا ومن جوه يعلم الله»

٣ – من المطاوعة إلى المسايرة إلى الخضوع:

المصرى لا يميل إلى التصلب أو العناد بل هو أقرب للمرونة والمطاوعة، وربما يؤكد هذه الصفات انتشار كلمة «ماشى» على ألسنة المصريين، وهى تعنى ميلهم الغالب للموافقة، حتى ولو كانت لديهم بعض التحفظات فهم دائما قادرون على التجاوز والتساهل والتنازل. وفى مجلس الشعب الذى يفترض فيه المناقشان والإعتراضات والتحفظات على قرارات الحكومة، إلا أننا نجد أن كلمة موافقة هى السائدة طول الوقت تقريبا على لسان رئيس المجلس (حتى أصبحت مثارا للعجب والتهكم فى الصحف والمجلات) وأحيانا يقولها رئيس المجلس دون أن يدقق فى عدد الموافقين والمعترضين، وكأنه يعلم أن عدم الموافقة غير وارد بالمرة. وصفة المرونة والمطاوعة كثيرا ما تتحول إلى حالة من المسايرة حيث يلغى الشخص خياراته لحساب الآخر خداعا (خذه على قد عقله)، أو تكيفا (اربط الحمار مطرح ما يعوز صاحبه) أو يأسا وضعفا (هو احنا ها نغير الكون) (ما يقدر على القدره إلا اللى خالقها) أو سعيا نحو الراحة السلبية (كبّر)... (نفّض).... (فوّت)..... (طنّش).... (عدّيها). وإذا زادت الضغوط

(خاصة إذا كانت تحمل بصمة سلطوية) فإن خيار الخضوع – لا المواجهة – يصبح أكثر احتمالا، والخضوع هنا يلبس مسوح الحكمة أو تقدير الظروف، أو الحفاظ على لقمة العيش، أو تربية العيال. وأحيانا يلبس الخضوع رداءا دينيا (يعضده علماء السلطة) يدعو إلى طاعة أولى الأمر وجعلها ردفا لطاعة الله وطاعة الرسول. وفى مرحلة تالية قد يتبنى الشخص المطيع أو المساير أو الخاضع خيارات المتحكم فيه ويقنع نفسه بوجاهتها وأهليتها للإتباع، وهذا ما يطلق عليه: «التوحد مع المعتدى»، فنجد المصرى يبرر آراء المستبدين به ويتبناها وربما يروج لها، ولا ينجو من هذا المصير غير أصحاب البصيرة القوية ومن لديهم القدرة على الفكر النقدى بعيدا عن الإنزلاقات الدفاعية أو التحيزات الوجدانية.

٤ – من حب الإستقرار إلى فرط الإستقرار إلى الجمود:

لقد فرض نهر النيل وما أرساه من طبيعة زراعية مستقرة على شاطئيه حالة من

الإستقرار المعيشى جعلت المصريين يميلون للمحافظة عليها والتمسك بها حتى أصبحت هذه الحالة جزءا من سماتهم الأصيلة لقرون طويلة حتى تحولت مع الوقت إلى حالة من فرط الإستقرار، وفى كثير من الأوقات إلى حالة من الجمود، على اعتبار أنه «ليس بالإمكان أبدع مما كان»..... «اللى نعرفه أحسن من اللى ما نعرفوش»..... «من فات قديمه تاه»..... «من طلع من داره اتقل مقداره». وسمة الإستقرار (التى تحولت إلى فرط الإستقرار ثم إلى الجمود) تحظى بحفاوة وتشجيع ممن حكموا مصر على مر العصور، وهم يجعلونها مصدرا للفخر لدى شعوبهم، لأنها فى النهالية تصب فى مصلحة الحاكم الذى يريد أن تبقى الأوضاع على ماهى عليه.

٥ – من الصبر إلى الرضى بأقل القليل إلى قلة الحيلة إلى التسليم:

يعتبر الصبر أحد السمات الواضحة فى الشخصية المصرية، والصبر هو احتمال الشئ الصعب على مضض، وهو لدى المصرى مرتبط بالمفاهيم والتصورات الدينية التى تعلى من قيمة الصبر وتعد الصابرون بالجنة ﴿**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً**﴾..... ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾، ومرتبط أيضا بالبيئة الزراعية التى تعودت أن تضع البذرة وتنتظر النتيجة بعد شهور عديدة ويصبح الإنتظار حتميا حين لا يكون بالإمكان تعجل الحصاد، ويصبح الوقت متمددا مرتخيا، ويصبح إيقاع الزمن بطيئا، ولهذا تتعود النفس على التحمل والإنتظار، وبطء الإيقاع دون تذمر أو ثورة. وإذا كان الصبر هو التحمل وضبط النفس على مضض فإن الإنسان المصرى يتحول مع طول الصبر إلى حالة من الرضا قد يسعى إليها سعيا أو يضطر إليها اضطرارا، وهو لا يعدم نصوصا دينية تعلى من قيمة الرضا لديه «من رضى فله الرضا»..... ولا يعدم من الأمثال الشعبية مايؤيد هذا المعنى «من رضى بقليله عاش».

وشيئا فشيئا يتحول الصبر إلى صبر سلبى يعانى منه المصريون دون أن يفعلوا شيئا لتغيير واقعهم، ثم يتحولون إلى حالة من الرضى بالفتات يفقدوا معها الدافع للنمو والحركة والتطور، ثم يصلوا إلى حالة من قلة الحيلة وفقد القدرة على التغيير تنتهى بحالة من التسليم أو الإستسلام للأمر الواقع.

وقد يكون الصبر السلبى والرضى بالدنية وقلة الحيلة والإستسلام للأمر الواقع، دفاعا ضد الشعور بالمسئولية تجاه الواقع المتردى ومحاولة تغييره، حيث تعطى هذه المفاهيم فرصة للشخصية أن تسترخى وتستسلم تحت وهم مبادئ برّاقة خاصة إذا أخذت قيمة دينية هامة، وفى هذه الحالة لا يفطن الشخص إلى الفروق بين الصبر الإيجابى المسئول والتحين للحظة المناسبة للتغيير للأفضل وبين الصبر السلبى المستسلم والمتواكل.

٦ – من المرح إلى الصخب إلى الفوضى:

رغم الحزن الكامن فى أعماق الشخصية المصرية والذى تؤكده كثير من عادات وطقوس وأدبيات المصريين خاصة فيما يختص بالموت وفراق الأحباب والأحزان الممتدة (الخميس والأربعين والسنوية، والطقوس والأدبيات الجنائزية، والتعديد على الموتى وذكرهم لسنوات طويلة، والمواويل المصرية الحزينة على صوت الناى الأشد حزنا)، إلا أن عين الفاحص لا تخطئ مظاهر الفرح أيضا لدى المصريين، وربما يكون للفرح تاريخا طويلا مع المصريين فهم تعودوا الإحتفال بأعياد الحصاد، وتعودوا الإحتفال بالنيل كل عام، وتعودوا الإحتفال بمولد ملوكهم، وتعودوا الإحتفال بأفراح زواجهم، وغيرها من المناسبات المتعددة، ولهم طرائق متعددة فى كل احتفال تدل على ولعهم بالفرح والمرح بشكل لافت للنظر إذا ما قورنوا بشعوب أخرى لا تملك هذا التعبير الواضح للفرح فى مناسبات كثيرة. وقد يكون المرح لدى المصريين هو الوجه الآخر والطبيعى المواجه والمعادل للحزن فى هذه الشخصية (وفى الإنسان عموما)، وقد يكون رد فعل أو تكوين عكسى (Reaction Formation)على الحزن الكامن فى الأعماق. وحين يتحول المرح إلى صخب (كما هو الحال فى الأفراح والموالد وكل المناسبات) فإن هذا يؤكد فكرة رد الفعل أو التكوين العكسى، وكأن المصرى يحاول أن يبالغ فى فرحه ليهرب من الحزن الكامن بداخله.

وشيئا فشيئا يتحول المرح إلى فوضى حيث تنطلق الميكروفونات بالأغانى والوسيقى فى كل فرح وفى كل قهوة أو كافيتريا، وفى كل رحلة أو معسكر، وفى كل نادى أو باخرة نيلية، دون اعتبار لعوامل الراحة أو السكن لبقية الناس، فمظاهر الفرح تفرض على

الجميع قهرا وقسرا بأشكالها المعتدلة والفجة على السواء.

٧ – من حب الحياة إلى الترف إلى الراحة إلى الكسل:

لا شك أن المصريون شعب محب للحياة، وقد ترسخ لديهم هذا الشعور كنتيجة لما أفاء الله عليهم من خيرات جاءت مع فيضان النيل، فعاشوا يمرحون على ضفافه ويستمتعون بخيراته، وسط بيئة خضراء، وطبيعة معتدلة، كل ذلك أعطاهم فرصة لممارسة الرياضات المختلفة، وإنتاج الفنون الجميلة والإستمتاع بها، وكانت طبيعة الحياة فى كثير من العصور تدعو إلى الراحة والرفاهية والترف، فماء النيل يروى الأرض بجهد بسيط ومحتمل، والأرض خصبة تجود بالخيرات، والطبيعة سمحة ومعتدلة وهادئة، والإستقرار شبه دائم.

هذا الأمن الغذائى والإعتدال البيئى أعطى فرصة للشعور بالراحة الذى يصل فى بعض الأحيان إلى حالة من الطمأنينة الزائدة التى تدعو إلى الكسل والتراخى.

والتحول عبر صفات المنحدر ليس حتميا لدى كل المصريين فبعضهم يأخذ من المتصل أعلاه فيحتفظ بالسمات الإيجابية دون تحول إلى الدرجات السلبية الناشئة عن تشويهها، ولكن الملحوظ أن نسبة غالبة من المصريين قد انزلقت أقدامهم إلى درجات أدنى على المنحدر فتحولت كثير من الصفات الإيجابية إلى صفات سلبية دون الإنتباه إلى ما حدث، أو قد يحدث الإنتباه (أو التنبيه) دون إرادة حقيقية للتغيير.

* * *

العلاقة بالوقت

نظرا للطبيعة الزراعية المتغلغلة فى الشخصية المصرية نجد هناك علاقة بالوقت تتسم بالتراخى وفرط الطمأنينة، فالمصرى القديم – كما ذكرنا – قد تعود على أت يبذر البذرة ثم ينتظر نموها بعد فترة غالبا تطول لشهور وليس مطلوبا منه شيئا غير بعض الرعاية البسيطة حيث أن خصوبة الأرض نتجة مايجلبه النيل من طمى وسهولة الرى تجعل عملية الزراعة أكثر بساطة وأقل عناءا. وهذا يعطى للمصرى إحساسا بالطمأنينة وامتداد الزمن فلا داعى للعجلة حيث أن الأمور ستأخذ وقتها مهما حاولنا استعجالها، وهذا الشعور الممتد بالزمن يجعل مسألة الإلتزام بالمواعيد عملية صعبة لدى كثير من المصريين. وهذا بالطبع يختلف عن المجتمعات الصناعية التى تشعر بقيمة الوقت وتسارعه فالوقوف أمام الآلة يستلزم يقظة وانتباها، كما أن دولاب العمل الصناعى بما فيه من ارتباطات دقيقة تفرض على المجتمع التزاما شديدا بالوقت.

فنحن فى أغلب الأحوال فى مصر أمام ما يسمى بالنمط الفلاحى فى الحياة وهو يتسم بطول البال والتراخى والصبر السلبى وانتظار الفرج يأتى من السماء دون جهد بشرى يبذل أو بأقل جهد، ويرسخ لهذا النمط الفلاحى أقوال وأمثال مثل «طولة البال تبلغ الأمل»... «اللى ما يتعملش النهارده يتعمل بكره».... «إمشى سنه ولا تعدى قنا».... «الدنيا اتخلقت فى سبع أيام».... «يا مستعجل عوقك الله»..... «إجرى يابن آدم جرى الوحوش غير رزقك لم تحوش»

* * *

العشوائية

حين تمشى فى شوارع أى مدينة أو قرية مصرية تجد حالة من العشوائية فى التنظيم الهندسى للشوارع والبيوت وكل شئ، فالعشوائية سمة سائدة فى الحياة المصرية وفي الشخصية المصرية، وتكاد تكون هي السمة الثالثة من حيث الترتيب في الأهمية بعد الفهلوة والتدين، وهناك تسامح كبير تجاهها وقبول غير مبرر لها وكأنها أحد السمات المميزة لمصر. وهذا يتناقض بشكل كبير مع آثار الحضارة المصرية القديمة التى اتسمت بالإنضباط والجمال والتناسق والدقة المبهرة، ويتناقض مع الآثار القبطية والإسلامية التى اتسمت بالجمال والبساطة والإعتدال والنظام والترابط.

ويبدو أن العشوائية فى الشوارع والبيوت وكل مظاهر الحياة (اللافتات، واللوحات، والمرور، والألوان، والأصوات، و.....،.....) هى تعبير عن تشوهات نفسية داخلية لحقت بالشخصية المصرية عبر عصور الإستبداد والتدهور الحضارى والأخلاقى، تلك التشوهات التى تقبل بالقبيح والمعوج والقذر والملتوى فى الخارج لأنها قبل ذلك قبلته فى الداخل. فهذا التشوه البيئى (صورة وصوتا) يعبر عن تشوها مقابلا بالداخل، لأن النفس المستقيمة النقية النظيفة الجميلة الصادقة، لا ترضى بالإعوجاج أو التلوث أو القذارة أو القبح أو الكذب حولها وبينها.

أرقام ودلالات:

يعيش ١٢ مليون مصري في العشوائيات، وهذا الرقم يتزايد يوميا حيث تقوم أحياء وربما قرى ومدن كاملة بعيدا عن تخطيط وتنظيم الحكومة، ولا يقتصر هذا الأمر على المناطق النائية البعيدة عن السلطة المركزية بل تتزايد العشوائيات بصفة خاصة في القاهرة، ويكفي فقط أن تمر على الطريق الدائري لترى هذا الكم الهائل من المباني العشوائية التي لا يزيد اتساع الشوارع فيها عن ثلاثة أو أربعة أمتار، ولا يوجد فيها أي تخطيط أو تنظيم، وهي عبارة عن أعمدة أسمنتية وطوب أحمر، والبلكونات متلاصقة تحجب ضوء الشمس

وتمنع وصول الهواء النقي، والشوارع مليئة بالقمامة والقاذورات ومواسير المياه التالفة والصرف الصحي المتسرب. وإذا سرت في أي حي عشوائي فستصدمك هذه المناظر القبيحة بالإضافة إلى الروائح الكريهة التي تتصاعد من المباني والشوارع وأجساد البشر المكدسين، والأصوات النشاز الصادرة عن المسجلات والتليفزيونات والبشر المطحونين مما يشكل حالة من التلوث السمعي والبصري يؤدي بالضرورة إلى تلوث أخلاقي وفساد الذوق. وقد سجلت منطقة شبرا الخيمة وشارع الجلاء بمدينة القاهرة أعلى نسبة تلوث في العالم.

وفي تقرير للجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء تبين أن ٣٠٪ من الأسر في مصر تقيم في غرفة واحدة بمتوسط عدد أفراد سبعة (عن كتاب الدكتور أحمد المجدوب: زنا المحارم، مكتبة مدبولي ٢٠٠٣، صفحة ١٦٨، القاهرة). وفي هذه الغرفة يمارس أفراد العائلة كل شئ بما في ذلك العلاقة الزوجية والتي تتم بالصوت والصورة على الهواء مباشرة تحت سمع وبصر الأبناء. وغالبا ما تضم هذه الغرفة ثلاثة أجيال هم الجد والجدة ثم الأب والأم ثم الأبناء.

وتتضاعف المشكلة في القاهرة بالذات نتيجة نزوح كثير من أبناء الريف وأبناء الصعيد من قراهم ونجوعهم التي ضاق بهم العيش فيها وحضروا للقاهرة التي تكدست فيها كل الوزارات وكل المؤسسات وكل الأنشطة التعليمية والصناعية حتى أصبحت القاهرة أشبه برأس متضخم له أزرع وأرجل نحيلة (وهي الأقاليم).

تجربة الفئران والمساحة الحضارية:

هناك تجربة شهيرة في علم النفس قام بها أحد العلماء نلخصها ونبسطها لنفهم منها أسباب تغير أخلاق المصريين في السنوات الأخيرة. فقد قام هذا العالم بوضع عدد من الفئران في صندوق كبير متسع، ووفر لها الطعام والشراب، فلاحظ أن الفئران تتصرف بطريقة ودية ومتسامحة وتلاعب بعضها البعض، وتجري وتمرح في سعادة، ثم بدأ بعد ذلك يضيق الصندوق شيئا فشيئا ويقلل من كمية الطعام والشراب، فوجد أن سلوكيات الفئران تتغير بحيث أصبحت أكثر ضيقا وعدوانية، وأكثر خشونة في التعامل، وأكثر

تنافسا وصراعا على الطعام والشراب، وأن هذا التغير السلبي يزيد كلما ضاق الصندوق أكثر وكلما قل الطعام والشراب.

وقد وجد علماء النفس والإجتماع أن نفس الشئ يحدث في الإنسان، فهو يحتاج لمساحة معينة يتحرك ويعيش فيها ولا يزاحمه أحد في هذه المساحة. وهناك عدة مستويات لهذه المساحة، فالإنسان له ما يسمى بالمنطقة الخاصة جدا (Intimate zone) وهي حوالي ٧٥ سم، وهذه المنطقة لا يتحمل أن يدخل فيها أحد إلا في أحوال خاصة جدا (كاقتراب المحبين مثلا) ، تليها المنطقة الشخصية (Personal zone) وهي حوالي متر ونصف، تليها المنطقة العامة (Public zone). وكلما اقترب أحد من المنطقة الشخصية، أو اقترب أكثر فدخل في المنطقة الخاصة جدا، فإن ذلك من شأنه أن يثير مشاعر القلق والغضب وربما العنف لدى الإنسان الذي اخترقت تلك المناطق لديه.

وفي المناطق العشوائية نجد الناس وقد التصقوا ببعضهم كما التصقت مبانيهم وبيوتهم، وهذا الإلتصاق يؤدي إلى حالة من الشعور بالإختناق والضيق وسرعة الإستثارة والغضب، وربما لهذا السبب شاع تعبير «انت خنقتني» و «أنا اتخنقت منك» و «انت خانقني» وكلها تعبيرات مصرية معاصرة تصور حالة الإختناق والضيق من الزحام في البيوت ووسائل المواصلات والشوارع والمدارس والجامعات.

وفي هندسة المدن والمباني هناك بعض القواعد التي توفر الشروط الإنسانية للحياة الصحية، فمثلا يجب أن لا يقل اتساع الشارع عن عشرة أمتار، حتى لا تحدث اختناقات في حركة الناس فيه، ويجب أن تكون حصة كل شخص في بيته غرفة لا تقل مساحتها عن ثمانية أمتار مربعة إضافة إلى ثمانية أمتار أخرى خدمات في الصالة والمطبخ ودورة المياه، أي أن الشخص الواحد من حقه ستة عشر مترا مربعا في مسكنه حتى يعيش حياة إنسانية سليمة ومريحة، فضلا عن مساحات الخضرة داخل وحول المكان. ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا تحول أهل العشوائيات إلى كائنات عدوانية تثور لأتفه الأسباب، ولماذا انخفضت قيمة الذوق والجمال لديهم، ولماذا تدهورت الكثير من الأخلاقيات في تلك الأحياء العشوائية المحرومة والمقهورة والمختنقة.

الغياب الحكومي وظهور السلطة الشعبية:

ونظرا لضيق الشوارع وقذارتها، ونظرا للإزدحام الشديد في المناطق العشوائية، ونظرا لانشغال الحكومة بأشياء أخرى ليس من بينها سكان هذه المناطق (إلا فيما ندر وفي وقت الكوارث بشكل خاص)، فإن الخدمات المتاحة تعجز عن تغطية احتياجاتها، بل إن الحضور الحكومي عموما في العشوائيات يكون باهتا وضعيفا بشكل عام، وهذا يعطي فرصة لنشأة قيادات شعبية من أهل العشوائيات تتمثل في صور مختلفة، فقد يقوم أحد البلطجية بالسيطرة على الشارع أو المنطقة، أو قد يقوم أحد الناس الطيبين بتنظيم حياة الناس وحل مشاكلهم والفصل في خلافاتهم ورعاية ضعفائهم بالتعاون مع أهل الخير أو من خلال بعض المساجد أو الجمعيات الأهلية، وقد تكون القيادة بيد بعض المتطرفين (كما حدث في امبابة حين تحكم أحد الأشخاص في حي عشوائي مغلق بأكمله، وأنشأ ما يشبه الدولة فيه في فترة السبعينات والثمانينات. وهذه القيادات الشعبية البديلة تملأ الفراغ الذي تركته الحكومة طوعا أو كرها، وتوجه الحياة في العشوائيات طبقا لرؤيتها.

والدور الحكومي الراعي والمساند يضعف كثيرا في العشوائيات، ويظهر بديلا له الدور الحكومي المقتحم لها في صورة هجمات وحملات للبحث عن المجرمين والمتطرفين والخارجين عن القانون المتغلغلين في العشوائيات نظرا لضيق شوارعها واذدحامها وسهولة التخفي فيها، ولذلك فإن لفظ «حكومة» في لغة العشوائيات، وربما في الوعي الشعبي المصري عموما، يعني «هجمة بوليسية»، ولهذا حين يرى الناس في العشوائيات سيارة حكومية فإنهم ينبهون أهليهم إلى أن «الحكومة» وصلت، وهذا يستدعي الإختباء والإحتماء وأخذ الحيطة وتوقع الشر والبطش، وتلك علاقة سلبية بالسلطة تجعل الحكومة في وعيهم كيان مهاجم ومقتحم ومؤذ، وليس كيان راع ومساند وداعم.

العشوائيات والفساد:

والعشوائيات هي تجسيد حي للإهمال والتراخي الحكومي، وللرشوة في المحليات، وضعف التنظيم والتخطيط والمتابعة والتوجيه، فقد نشأت ككيانات سرطانية تحيط وتلتف حول المدن أو الأحياء الراقية دون أن يوقفها أحد، حتى أصبحت بقعا تلطخ وجه

القاهرة والمدن الكبرى، وهي لم تظهر فجأة بين يوم وليلة، وإنما ظهرت على مدى سنوات طوال، ظل الكتّاب والمفكرون والمصلحون يصرخون خلال هذه السنوات محذرين من تنامي العشوائيات، وأنها بؤر للفقر والجريمة والمخدرات والتطرف، وأنها مرتع للسلوكيات اللاأخلاقية المشوهة، ولكن ذهبت هذه الصرخات والتحذيرات أدراج الرياح، وراحت العشوائيات تتمدد في كل مكان حتى خنقت شرايين الحياة الطبيعية في مصر وشوهتها. ونظرا للفقر وقلة فرص التعليم وانتشار الأمراض، والحرمان من أساسيات الحياة، وقلة فرص العمل، فقد انتشرت البلطجة والسرقة وتعاطي المخدرات وزنا المحارم، والرشوة، والقتل، وغيرها من الجرائم المرتبطة ببيئة العشوائيات المحرومة والمحبطة.

ثقافة العشوائيات:

وهي نفسها ثقافة الفقر وثقافة الزحام، وقد ظهرت في أشكال كثيرة، ومنها اللغة الجديدة التي شاعت بين أهل العشوائيات وانتشرت بسرعة البرق إلي باقي الطبقات الإجتماعية، ونذكر منها بعض الكلمات كأمثلة: «كبّر».... «نفّض».... «فاكس»..... «طنش».... «بيشتغلني»..... «بيشتغل نفسه»... «بيزاولني»..... «بيزاول نفسه»..... «محوراتي»..... «بيحوّر عليّا».... «ثبتّه»..... «قلّبه»..... «بعته».

كما ظهرت هذه الثقافة في شيوع أغان جديدة مثل «العنب» و «باحبك ياحمار» و «خش عليّا»، ولمع في هذه الثقافة مطربين شعبيين مثل أحمد عدوية وشعبان عبدالرحيم وسعد الصغيّر وعماد بعرور وعبد الباسط حموده وشفيقه وأمينة، وغيرهم. ليس هذا فقط بل إن أغلب كلمات الأغاني للمطربين غير الشعبيين تنتمي إلى لغة العشوائيات وكأنها أصبحت موضة جديدة عند العشوائيين وغيرهم، ونذكر على سبيل المثال: «باحبك وحشتيني... دا حتى وانت مطلعه عيني».... «مش حاسأل فيكي.. حتى ولو وقفت على إيديكي»..... «كلمنجي قوي وبتحب تبان واحد غلبان»..... «انت اللي طلبت تتطلقي وتسيبي بيتك وتفلقي»..... «أركب الحنطور واتحنطر.. درجن درجن».... «أنا جايلك وناويها باظبط.. وقتيل ع الباب باخبط.. ها تعمل لي إيه.. هاتسلم بعديها فقصر.. وبجد

انا مش باهزر»... «صفايح الجبنة السايحة وبراميل القشطه النايحه».... «سامحيني لازم أربيكي»..... «والله ما هرجع تاني لو وقفت تتنططي»... «ارجع لك يعني حرقة دم... أسمع لك كل كلامك غم».

وقد نجح فيلم «اللمبي» نجاحا باهرا لأنه قدم لنا صورة الحياة المصرية في العشوائيات بلغتها وثقافتها وتناقضاتها وهبوطها وانحدارها، وجعلنا نرى أنفسنا في مرآة مكسورة، ولهذا شاعت عبارات الفيلم وطريقة كلام اللمبي لفترات طويلة على لسان الشباب في العشوائيات وغيرها.

ونظرا لأن القاهرة عبارة عن عدد قليل من الأحياء الراقية أو حتى السويّة مثل الزمالك والمهندسين والعجوزة وجاردن سيتي ومدينة نصر تسبح في بحر من العشوائيات، فإن ثقافة العشوائيات طغت وتغلغلت في الأوساط الراقية فأصبح روّاد نادي الجزيرة ونادي الشمس ونادي الصيد يتباهون بإجادتهم للغة العشوائيات، وأصبح البطل الشعبي العشوائي هو الصورة المفضلة لدى أطفال ومراهقي وشباب مصر، فلغة اللمبي هي لغة الشباب الروش طحن (وهي تلك اللغة التي رصدها الشاب المبدع ياسر حماية في قاموسه اللغوي المصري)، وهي لغة الشاب المقطّع، الصايع، ولم يتوقف هذا الإعجاب بالبطل العشوائي عند الشباب والمراهقين بل إن أحد الوزراء تفاخر في لقاء إعلامي بأنه «مش خيخة» وبأنه «صايع»، فقد صارت كلمة «صايع» يفتخر بها في هذه الثقافة العشوائية، وأصبح الشخص النظيف المنظم المهذب المنضبط والملتزم بالقواعد والقوانين مسار سخرية الجميع.

وهكذا طفحت المجاري في المناطق العشوائية، وطفحت ثقافة العشوائيات على الثقافة المصرية حتى امتدت إلى لغة الصحف والمجلات وبعض الكتب وبعض الوزراء.

خيانة النخبة:

تنقسم المجتمعات من ناحية معامل الذكاء إلى ٢٠٪ ذكاؤهم فوق المتوسط، و ٤٠٪ ذكاؤهم متوسط، و ٢٠٪ ذكاؤهم تحت المتوسط. ومن المفترض أن أصحاب الذكاء فوق

المتوسط يشكلون مجتمع النخبة، وهم يخططون لبقية الفئات حياتهم وينظمون حركتهم ويكونون قدوة تتطلع إليها الفئات الأدنى وتحاول أن تقترب من لغتها وعاداتها على اعتبار أنهم الأفضل والأرقى. ومع قيام الثورة كان هناك نوع من الإستعداء على النخبة على أساس أنهم ينتمون إلى المجتمع الإقطاعي أو الأرستقراطي الذي حملت الثورة على عاتقها محاربته والنيل منه، وفي هذه الظروف تخلت النخبة عن دورها أو انكمشت على نفسها أو عاشت بشكل أناني تبحث عن مصالحها، وخانت بقية الطبقات وتخلت عنها فاضطربت حياتها وأصبحت الطبقات الأدنى تعيش حياة عشوائية فقيرة ومضطربة، وفي ذات الوقت دأبت الثورة على تمجيد طبقة العمال والفلاحين، وتمجيد الطبقات الأدنى. وربما تظن النخبة أنها نجت بحياتها بعيدا عن الطبقات العشوائية التي رعتها الثورة بقصد أو بدون قصد، ولكن الواقع يقول بأن الطبقات العشوائية توحشت وزادت مع الفقر والزحام حتى صارت خطرا يهدد الحياة السوية في مصر. وربما تكون مظاهرات واعتصامات العمال الجوعى في أماكن كثيرة شئ من إرهاصات الثورة العشوائية، ويشابهها مظاهرات وانتفاضات العطشى، والمعذبين والمقتولين والمحروقين في أقسام الشرطة وفي الشوارع، فكلهم ينتمون إلى المجتمعات العشوائية التي أكلها الفقر والعطش والظلم ونحن عنها غافلون. ولا ننسى حوادث التحرش الجماعي العشوائي في وسط شوارع القاهرة، وكأنها «بروفات» لثورات أو انفجارات «عشوائية» أكثر جمعا وأكثر خطورة تحدث في المستقبل، لو لم يتم احتواء هذا الغول العشوائي.

عشوائية الحياة:

ولم يقتصر الأمر على ظهور بعض الأحياء العشوائية هنا أو هناك بل أصبحت العشوائية سمة حياة في مصر، فتراها في الشوارع الضيقة والملتوية، وتراها في إشارات المرور المضطربة، وتراها في لافتات الأطباء الملطخة بلا نظام على واجهات المباني، وتراها في اضطراب التناسق في الأشكال والألوان والمباني في كل مكان (باستثناء بعض المدن السياحية الجديدة)، وتراها في وسائل المواصلات، وتراها في المواعيد المضطربة لكل شئ، وتراها في القرارات والقوانين، وتراها في التعليم والصحة، وتراها في الغش في

الإمتحانات، وتراها في تزوير الإنتخابات، وتراها في انعدام النظافة وانهيار النظام في كل شئ تقريبا. وتكاد تشعر أن هذا النمط العشوائي للحياة في مصر أصبح أقوى من كل القوانين وأقوى من سلطات الحكومة، وأقوى من أي رغبة تفكر في السيطرة عليه، وكأن العشوائية أصبحت ديناصورا ضخما لا يستطيع أحد السيطرة عليه، بل تبدو الأمور وكأن هناك رضا به وقبولا له، أو على الأقل تساهلا تجاهه، فهو بيئة ومرتع خصب للفساد وانحراف الذوق والأخلاق.

وهناك من يقول بأن الشوارع لن تستقيم حتى تستقيم النفوس، وأن اختناقات المرور لن تنتهي حتى تنتهي اختناقات النفوس، وأن القمامة لن تختفي من الشوارع قبل أن تختفي من جنبات الضمير، وأن الضوضاء لن تهدأ حتى تهدأ النفوس من الداخل ويعمها السلام، وقد يكون ذلك صحيحا، وهناك من يقول العكس بمعنى أن البيئة الخارجية حين تنصلح تؤثر في البيئة النفسية، وقد يكون ذلك صحيحا أيضا، ولكن المهم أن نبدأ الإصلاح سواء من الخارج للداخل أو من الداخل للخارج، وذلك قبل أن يستفحل السرطان العشوائي فيأكل ما تبقى من الجسد ونحن نتفرج أو نكتفي بالوصف والتشخيص.

***

أزمة الذوق والجمال

لا يكاد يصدق أحد أن المصريين الذين صنعوا الجمال وعلموه للدنيا ووضعوا حدوده ومقاييسه فى فترات صعودهم الحضارى سواء كان مصريا قديما أو قبطيا أو إسلاميا، هم أ نفسم الذين يبنون هذه البيوت العشوائية الأسمنتية القبيحة والفقيرة من أى جمال بل والمليئة بالقبح والتشوه حول القاهرة ومدن الأقاليم والقرى المصرية.

ولا يصدق أحد أن بلدا له هذا العمق الحضارى الكبير تمتلئ شوارعه بأكوام القمامة فى كل مكان لتفوح منها روائح عفنة، أو تنبعث روائح البول فى بعض الميادين الهامة وتحت الكبارى فى أماكن حيوية بمدينة القاهرة، ولا يصدق أحدا أن أحفاد صنّاع الجمال يعيشون فى مدن ليس لها نظام معمارى متناسق بل كل بيت له شكل ولون مختلف ومتنافر مع الذى بجواره، واللافتات معلقة بلا أى نظام أو قواعد، والأصوات تتصاعد بشكل عشوائى ومتداخل من كل شئ.

والأغرب من كل هذا أن يعتاد الناس على ذلك فلم يعودوا يتذمرون أو يستنكرون، وتبقى قلة قليلة تستنكر وتنادى دون أن يستجيب لها أحد.

وهذا لا ينفى ما فى مصر من أماكن جميلة تستحق الإشادة والفخر بها، وهى تجذب السائحين ومحبى الجمال من كل مكان، ولكنها تبقى استثناءا فى الحياة المصرية يؤكد القاعدة سالفة الذكر ولا ينفيها.

* * *

هل المجتمع المصرى فى أزمة؟

يبدو بوضوح فعلا أنه فى أزمة، ويمكنك أن تلا حظ ذلك حين تنظر فى وجوه الناس فستجد أنهم مأزومين غير سعداء، محبطين، مجهدين، تظهر على بعضهم علامات الضيق وعلى بعضهم علامات الإعياء وعلى بعضهم علامات الإنكسار وعلى بعضهم علامات الإصابة بأمراض الكبد والكلى، وستجد قليلين منهم سعداء او مبتسمين. وستتأكد لديك هذه الملاحظة إذا كنت عائدا لتوك من خارج مصر وعقدت مقارنة بين ما شاهدته فى أهل البلد الآخر وما شاهدته فى المصريين فستجد الفرق واضحا فى نوعية الحياة واستمتاع الناس (الآخرين) بها. وإذا فتحت التليفزيون أو قرأت الصحف فسوف يهولك كم الحديث عن الأزمات فى السياسة والإقتصاد والتعليم والرياضة والخطاب الدينى والأزمات الطائفية، وغيرها كثير، وسوف تكتشف أن الحديث عن الأزمات يكثر دون حل لها، وهذا يصيب الناس بحالة شديدة من الإحباط والقهر وفقدان الأمل وقلة الحيلة، ولنأخذ على سبيل المثال مشكلة السحابة السوداء التى خنقت الناس وضيقت عليهم أنفاسهم وأصابتهم بالإنقباض والحزن، فقد عقدت اجتماعات وجرت مناقشات واتخذت قرارات ولم تنفذ وظلت السحابة السوداء متحدية للجميع رغم أن حلها بسيط ويستوجب فقط وجود آلية فعالة وصارمة لنقل قش الأرز من الحقل إلى مكان يتم تصنيعه أو تدويره بشكل آمن، وهى عمليات كلها بسيطة، ولكن فقد إرادة الفعل وفقد التنظيم الإدارى والإستهانة بصحة الناس وراحتهم جعل هذه المشكلة ومشكلات كثيرة غيرها تتراكم وتتحول إلى أزمات تخنق وتحبط الناس بلا مبرر.

وننقل هنا رأى بعض المتخصصين فى الطب النفسى وهم من رواده وأساتذته المعلمين، يقول الدكتور أحمد شوقى العقباوى أستاذ الطب النفسى بجامعة الأزهر فى رده على سؤال عن حالة الشعب المصرى وما أصابه من تغيرات وذلك فى ندوة بجريدة الأهرام تحت عنوان: «المصرى بين الأنانالية والمسئولية» (جريدة أهرام الجمعة، ٤ نوفمبر

٢٠٠٥، صفحة ٢٦): «إن المجتمع المصرى قد تغير وبالذات فى الثلاثين سنة الماضية، ولحقه التشوه، وأصيبت البنية الأساسية للشخصية المصرية، وآن الأوان لكل مهتم بالشأن العام أن يتنبه ويدرك أن التفكير – كما قال عباس محمود العقاد – فريضة إسلامية، وآن الأوان أن نفيق فهذه مسئوليتنا جميعا وفى طليعة المجتمع يكون المثقفون ويكون دورهم». ويقول الدكتور أحمد عكاشة أستاذ الطب النفسى ورئيس الجمعية العالمية للطب النفسى فى حوار له فى جريدة «الغد» العدد الخامس والثلاثون بتاريخ ٢ نوفمبر ٢٠٠٥ صفحة ١٠: «.. فى الحقيقة لا يستطيع أحد أن يفصل بين السياسة والمجتمع والبيئة فكلهم يلعبون دورا واحدا، فمثلا لدينا بطالة وكبت للحرية ولا يوجد عمل جاد يؤدى إلى نتيجة، كما أن التعليم فى انهيار، والصحة غير متوفرة، وهناك تلوث بصرى وسمعى وشمى، كل هذه العوامل تجعل المواطن محبطا، والإنسان المحبط معرض لخمسة أشياء: لامبالاة، وفقدان المواطنة، والعنف والعدوان، والإرهاب، وأمراض القلب. والإحباط له أسبابه السياسية والإجتماعية والنفسية، فأكثر من ٥٠٪ من المصريين يعيشون تحت خط الفقر فكيف يبدعون ويخلقون وينتجون؟، وهو ما جعل نحو ٩٠٪ من المصريين لا يشعرون بالمواطنة، أى يفقدون الإنتماء»، ويقول أيضا: « الشعب المصرى فى حالة من حالات الإستكانة والخوف من الحاكم والبعد عن الحكومة، ليس الكل ولكن الغالبية صاروا فى حالة خنوع وطاعة عمياء لأولى الأمر، وهذا أحد أسباب التأخر، فالحكام السابقون لم يحاولوا مشاركة الشعب معهم فكانت تلك هى النتيجة»، ويقول: «الجمود هو أخطر شئ فى الصحة النفسية للفرد، لأنه يقتل الإبداع والتفكير والإنتاج ويحدث ركودا، كالذى نعيشه فى مصر، فكلما جلس الحاكم مدة أكبر كان الركود أكثر».

العلاج

١- **كشف أبعاد شخصية الفهلوى** والبدء فى تكوين اتجاها سلبيا نحوها فى وسائل الإعلام وفى المؤسسات التربوية والدينية، وعدم التسامح مع كل من يمارس أى سلوك فهلوى على المستوى السياسى (بالتزوير أو التهليل أو النفاق أو اغتصاب الشرعية) أو المستوى الإقتصادى (بإعطاء بيانات كاذبة وأرقام خادعة وأمانى لا تتحقق أو الحديث

عن اذدهار خيالى) أو المستوى الإجتماعى (بدغدغة مشاعر الناس وإيهامهم بالريادة والتفوق والتميز الكاذبين والمخدرين).

٢- **كشف أنماط التدين الكاذب والكذب المتدين والتدين النفعى**، ثم إعطاء الفرصة للتدين الأصيل أن ينمو بشكل هادئ وطبيعى ليدفع الناس إلى تحسين علاقاتهم بالأرض والسماء ويدفعهم إلى العمل الجاد الحقيقى لعمارة الأرض وسعيا لوجه الله.

٣- **الإرتقاء بالحس الفنى والجمالى لدى النشء**، ذلك الحس الذى يجعلهم يرفضون القبح فى داخل نفوسهم (التكوين الأخلاقى) وفى خارجها (المظهر البيئى)، ويجعلهم صنّاعا للجمال ومستمتعين به كقيمة سامية تضفى على الحياة جمالا وبهاءا ونظافة وطهرا واستقامة.

٤- **بناء الشخصية المنتجة**: وهى كما يحددها الدكتور / حامد عمار: «التى تعمل بجدية، وتستمتع بما تعمل، وتنتج وتدرك قيمة ماتنتجه، ولديها قدرة على الملاءمة بين الغايات والوسائل، وتؤمن بأن الوصول إلى الهدف لا يتم إلا خطوة بعد خطوة، ليكون الهدف الكبير مجموعة أهداف جزئية، كل منها يمثل حلقة تؤدى إلى ما بعدها، ومن تماسك وتتابع وتكامل هذه الحلقات يصل الفرد إلى إكمال السلسلة التى تنتهى به إلى الهدف».

٥- **القدرة على الإعتراف بالخطأ وتصحيحه**: وهذا ضد منظومة الفهلوة التى كانت تزين كل الأخطاء وتحول الهزائم لإنجازات وتكتفى بوضع المراهم على السرطانات القاتلة، وتخادع وتناور وتلف وتدور بلا نهاية أو فائدة، تلك المنظومة القاتلة التى تهدر كل الفرص للنمو والتطور الحقيقى، وتدع الأمور بأيدى الكذابين والمنافقين والمخادعين والأفاقين. إذن حين تتغير هذه المنظومة المريضة وتحل محلها منظومة صدق وأمانة وشجاعة وقدرة على الإعتراف بالخطأ وتصحيحه فإن ذلك يغير واقع الحياة المصرية تماما وفى وقت أقصر مما يتصور الناس. وربما يقول قائل: هذه أحلام وأمانى لا ترتكن إلى آليات حقيقية لتنفيذها، وهذا صحيح فأى مبادئ لاتحكمها وتحميها آليات تظل فى حكم الأمانى والأحلام لفترة ثم تتآكل وتختفى مع الوقت. ولو عدنا إلى تجربة ماليزيا لوجدنا

أن مهاتير محمد قد شكل لجنة مكونة من عشر أفراد يجمعون بين عمق التخصص العلمى وبين الصدق والأمانة، وهذه اللجنة وظيفتها تلقى تقارير يومية من كل المؤسسات الإنتاجية الحيوية، وترسم خطا بيانيا لكل مؤسسة داخل الخريطة الكلية للعمل والإنتاج، ومن ملا حظة هذه الخطوط صعودا وهبوطا كانت اللجنة تحصل على تغذية مرتجعة (Feedback) عن كل الأنشطة الإنتاجية فى الدولة، فإذا وجدوا تدهورا فى أحد المؤسسات بادروا باتخاذ ما يلزم فورا لاكتشاف الأخطاء وتصحيحها على وجه السرعة. وكانت القيمة السائدة فى المجتمع الماليزى الصاعد هى الصدق تليها قيمة الجدية فى العمل والإنتاج، تليها قيمة العمل الجماعى وروح الفريق، وهكذا استطاعت التجربة الماليزية أن تنجح «بحق وحقيق» فى الوقت الذى فشلت فيه التجربة المصرية التى قامت على الفهلوة.

٦- **روح الفريق**: حين أتيحت لى فرصة العمل ضمن فريق عمل متعدد الجنسيات اكتشفت لأول مرة «بشكل عملى وحقيقى» سر التقدم العلمى، وهو يكاد ينحصر فى ثلاثة عناصر بسيطة جدا ومهمة جدا (وغائبة جدا من حياتنا المصرية): الأول: العمل الجماعى Team work،الذى يعطى فرصة للإستفادة من الخبرات المتنوعة للبشر ويعطى فرصة للتراكم والتكامل، الثانى: منظومة العمل System) (التى تضع إطارا واضحا للعمل وتضع بداخله الخطوط التفصيلية التى تشكل هيكل العمل ومساراته بحيث تسير الأمور بشكل سلس ومنتج ومؤثر وممتع فى ذات الوقت، الثالث: التغذية الإرتجاعية، (Feedback) والتى تعطى فرصة صادقة وحقيقية لتقييم العمل ودراسة أوجه النجاح والفشل فيه بغرض التحسين المستمر والإستفادة من الأخطاء.

وتكاد تكون هذه العناصر غائبة بشكل خطير فى النسيج المصرى باستثناء بعض الأماكن القليلة، وهذا يجعلنا دائما نفشل فى الأنشطة التى تحتاج بشكل خاص إلى هذه الأشياء مثل المشروعات الصناعية الكبيرة أو المؤسسات الضخمة، أو الألعاب الرياضية الجماعية، وربما يفسر هذا فشلنا فى بناء أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية فاعلة على الرغم من وجود عدد كبير من العلماء المتميزين فى كل هذه المجالات، وعلى الرغم من

حصول المصريين على أربعة جوائز نوبل فهم يأخذون صفرا مخزيا فى الصلاحية لاستضافة المونديال الكروى.

اكتساب مهارات «حقيقية» يحتاجها سوق العمل «الحقيقى»، ومعذرة لاستخدام كلمة «الحقيقى» طول الوقت، والسبب فى ذلك هو شعورنا بشبح «الشخصية الفهلوية» تحاول القفز طول الوقت لإيهامنا بأننا نفعل ذلك ونحن لم نفعله. وهذه المهارات ليست فقط مهارات تقنية وإنما أيضا مهارات تنظيمية وإدارية كأن يتعلم مهارات القيادة الديموقراطية الحازمة والراعية، ومهارات الجندية الواعية بدورها وقيمته فى غير تمرد إو إفساد، ومهارات التخطيط، فالعمل فى دكان أو ورشة يختلف كثيرا عن العمل فى مصنع أو مؤسسة.

٧ – **إعادة الإعتبار لقيمة العمل الجاد والمتقن والمثابر**، وذلاك بسحب الأضواء من الأفاقين والكذابين والمتسلقين والمرفهين والمهللين والمنافقين، وتسليطها على من يعملون «بحق وحقيق» وتكريمهم والرفع من شأنهم حتى يترسخ فى أذهان الناس وقلوبهم مرة أخرى القيمة العليا للعمل ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾، فالعمل لابد أن يقدر ويقيم ويكافأ على كل المستويات، وتصبح المرتبات والمكافآت والترقيات مرتبطة ارتباطا دقيقا بحجم العمل ونوعيته وجدته.

٨ – **الإصلاح السياسى الجاد والحقيقى لإيجاد آليات تغلق الباب وللأبد أمام كل محاولات الإستبداد السياسى**، ذلك الإستبداد الذى كان هو العنصر الأساس فى تشويه الشخصية المصرية على مر العصور رغم وجود عوامل صحة وقوة فى هذه الشخصية، لذلك يبدو الإصلاح السياسى عاملا علاجيا أوليا، وكان من المفترض أن نضعه فى مقدمة وسائل العلاج وآلياته لولا خوفنا من أن يبتلع بقية العناصر الفردية والإجتماعية ويلغيها أو يهمشها، ولكنه فى الحقيقة جدير بأن يوضع فى مقدمة المقدمة نظرا لخطورته وأهميته وعصيانه على العلاج على مدى قرون طويلة، وليس هنا مجال الحديث عن وسائل هذا الإصلاح وخطواته وآلياته وصعوباته.